الدكتور محمد جميل غازي

مِنْ مفردات القرآنِ

- ٢ -

• المُنَافِقُونَ

مكتبة المدني ومطبعتها
جدة سوق الندى ت ، ٣٢٢٣٦٢

الدكتور محمد جميل غازي

من مفردات القرآن

— ٢ —

• المنافقون

مكتبة المدني ومطبعتها
جدة سوق الندى ت: ٢٢٢٦٢،

بسم الله الرحمن الرحيم

● وبعد : فإن هذه هى « الحلقة الثانية » من مفردات القرآن .

لقد وفق الله وأعان على أن توالى هذه السلسلة صدورها وصمودها ، ولولاه .. لولا الله .. ولولا عونه ومدده ؛ لما كان لهذا العمل أن يستمر ، ولا أن يثمر ، ولمات وليداً وئيداً ! !

ولكنها عناية الله ورعايته ؛ فيضت لهذه الرسائل أعداداً هائلة من الأصدقاء ، دفعوها إلى الإمام ، وشجعوها . . .

وما كان لى ، ولا لأكثر المشجعين تفاؤلا ؛ أن نظن أو أن نحسب ، أن قدرتها على « التوزيع » تصل إلى هذا الحد ، ولا أن قوتها على « الصمود » تصل إلى هذه الغاية . .

ولكنها قدرة الله وإرادته . . .

وهل ينكر قدرة الله وإرادته إلا كافر جحود ؟ !

* * *

● وإننى إذ أقدم هذا الجزء الثانى من هذه السلسلة ؛ أشكر كل المخلصين الذين وقفوا إلى جانبى مؤيدين ومشجعين ؛

وأرثى لكل المعوقين الذين حاربوا هذا العمل بكل أساليب الحقد

والكيد والدس ، ووقفوا فى سبيله صادّين عنه ، هازئين به .

* * *

● وموضوع رسالة اليوم :

(المنافقون كما يصورهم القرآن الكريم)

وقد صوّر القرآن الكريم أحوال المنافقين فى كثير من آياته ، ونشر علينا العديد من أخبارهم وأسرارهم فى كثير من سوره ، أجارنا الله منهم ومن أخبارهم وأسرارهم . . وشفى صدورنا من كل أمراض القلوب ، وعلل النفوس ! !

● رب اشرح لى صدرى ويسّر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى . . .

ويارب ، ورب العالمين ... اهدنا لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ! !

ويارب ، ورب العالمين . . . لك الحمد فى الأولى والآخرة .

ويارب ، ورب العالمين ... لك العتبى حتى ترضى ولا إله إلا أنت .

الدكتور

محمد جميل أحمد غازى

مقدمات

المقدمة الأولى : [تعريف النفاق] :

المنافق — هو الذى يظهر الإيمان ، ويبطن الكفر .

قال الأنبارى : وهو مأخوذ من النفق ، وهو السَّرب ، فهم يتسترون بالإسلام ، كما يتستر الرجل فى السرب .

وقال غيره : إنه مشتق من النافقاء — وهو جحر اليربوع — أو أحد بابيه .

قال أبو عبيدة : إنه يجعل لجحره بابين ، أحدهما : القاصعاء ، والآخر : النافقاء ؛ فإذا طلب من أحدهما خرج من الآخر ، وهكذا شأن « المنافق » يظهر للمؤمنين من باب الإيمان ، وللكافرين من باب الكفر ؛ فإذا أصابته مشقة من أحدهما لجأ إلى الآخر .

وقال غيره : إن النافقاء جحر اليربوع يحفره فى الأرض ويرققه من أعلاه ؛ فإذا رابه شىء فخاف على نفسه دفع التراب برأسه وخرج ، فقيل « للمنافق » منافق ؛ لأنه يضمر الكفر فى باطنه ، فإذا فتشته رمى عنه ذلك الكفر وتمسك بالإسلام — كذا وجَّهه الرازى — ، ولك أن يقول : لأنه يلجأ إلى الإسلام ويحتمى به فإذا رابه منه شىء خرج منه إلى الكفر .

وقول بى عبيدة أظهر هذه الأقوال .

* * *

المقدمة الثانية : [النفاق ومادته فى القرآن الكريم] .

ورد لفظ النفاق ومشتقاته فى القرآن الكريم ٣٨ مرة .

وقد تردد ذكر المنافقين وأحداثهم فى سبع عشرة سورة من سور القرآن المدنية — هى :

— البقرة ـ الآيات : (٨ـ٢٠) ، (١٤٢ ، ١٤٣) ، (٢٠٤ ـ ٢٠٦) .
— آل عمران ـ الآيات : (٧٢) ، (١١٨ ـ ١٢٠)، (١٥٤ ـ ١٦٨) ، (١٧٩) .
— النساء ـ الآيات : (٣٧ ، ٣٨) ، (٦٠ ـ ١١٥) ، (١٣٥ ـ ١٤٦) .
— المائدة ـ الآيات : (٤١) ، (٥١ ـ ٥٦) ، (٦١) .
— الأنفال ـ الآية : (٤٩) .
— التوبة ـ الآيات : (٣٨ وحتى آخر السورة) .
— الحج ـ الآيات : (٣ ، ٤) ، (٨ـ ١٣) .
— النور ـ الآيات : (١١ ـ ٢٦) ، (٣٣) ، (٤٧ـ ٥٣)، (٦٢ـ٦٤).
— العنكبوت الآيات : (١٠ ، ١١) .
— الأحزاب ـ الآيات : (١ ـ ٢٠) ، (٣٦ ـ ٤٨) ، (٦٠ ـ ٦٢) ، (٧٢ ، ٧٣) .
— القتال ـ الآيات : (١٦ وحتى آخر السورة) .
— الفتح ـ الآيات : (٦) ، (١١ ـ ١٦) .
— الحديد ـ الآيات : (١٣ ـ ١٥) .
— المجادلة ـ الآيات : (٨) ، (١٤ ـ ٢٢) .
— الحشر ـ الآيات : (١١ ـ ١٧) .
— المنافقون ـ الآيات : (١ ـ ٨) .
— التحريم ـ الآية : (٩) .

● ومن استعراض هذا الثبت يتضح ما يلى :

أولا : أن موضوع النفاق والمنافقين ، قد استغرق مايقرب من ٣٤٠ آية من آيات الكتاب العزيز البالغ عددها ٦٢٣٦ آية .

ثانياً : كذلك ؛ فإن هذا الموضوع قد ورد فى سبع عشرة سورة من السور المدنية البالغ عددها ٣٠ سورة .

والسور المدنية التى لم يذكر فيها « المنافقون » - هى : الرعد ، الحجرات ، الرحمن ، الممتحنة ، الصف ، الجمعة [١] ، التغابن ، الطلاق ، الإنسان ، البينة ، الزلزلة ، النصر ، الفاتحة (على خلاف فيها هل هى مدنية أو مكية).

● وسأحاول فى فصول هذه الدراسة الموجزة أن أقدم بعض ما جاء فى القرآن الكريم خاصاً بالمنافقين ، ولا أقول إنها ستكون دراسة مستوعبة شاملة ، لأن الاستيعاب والشمول فوق طوق هذه الرسالة القصيرة ، والمجهود الضئيل الذى بذل فيها .

* * *

المقدمة الثالثة : [القلوب وأمراضها] :

● تحدث القرآن الكريم عن القلوب المريضة فى اثنتى عشرة آية من آياته ، وبيَّن أن هذا المرض يصاب به المنافقون ، كما يصاب به المترددون بين الإيمان والكفر ؛ نفهم ذلك من قوله تعالى : (٨ : ٤٩ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم) - فجمع بين المنافقين والذين فى قلوبهم مرض - وكذلك قوله تعالى : (٣٣ : ١٢ وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) (٣٣ : ٦٠ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينَّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا).

---

(١) قيل : إن قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ نزل فى المنافقين .

وقد يذكر فى الآية مرضى القلوب وحدهم ، وحينئذ يكون المقصود بهم المنافقين كما جاء فى قوله تعالى : (٢ : ١٠ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) (٥ : ٥٢ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) (٤٧ : ٢٩ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) .

• ولقلوب المنافقين والكافرين فى القرآن الكريم عشرون وصفاً :

١ — الختم : (٢ : ٧ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) .

٢ — الطبع : (٦٣ : ٣ فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) (٤ : ١٥٥ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) .

٣ — الضيق : (٦ : ١٢٥ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد فى السماء) .

٤ — المرض : (٢ : ١٠ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) .

٥ — الرين : (٨٣ : ١٤ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

٦ — الكبر : (٤٠ : ٥٦ إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) .

٧ — القساوة : (٣٩ : ٢٢ فويل للقاسية قلوبهم عن ذكر الله) (٢ : ٧٤ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) .

٨ — الانصراف : (٩ : ١٢٧ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) .

٩ — حمية الجاهلية : (٤٨ : ٢٦ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) .

١٠ — الإنكار : (١٦ : ٢٢ قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) .

١١ — الغفلة : (١٨ : ٢٨ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

١٢ — العمى : (٢٢ : ٤٦ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

١٣ — الاشمئزاز : (٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) .

١٤ — الزيغ : (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

١٥ — الريب : (٩ : ٤٥ وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) .

١٦ — النفاق : (٩ : ٧٧ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) .

١٧ — الغمرة : (٢٣ : ٦٣ بل قلوبهم فى غمرة) .

١٨ — اللهو : (٢١ : ٣ لاهية قلوبهم وأسروا النجوى) .

١٩ — الأكنة : (٦ : ٢٥ وجعلنا على قلوبهم أكنة) .

٢٠ — الإثم : (٢ : ٢٨٣ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .

● وكذلك لقلوب المؤمنين والمتقين عشرون وصفاً :

١ — السلامة : (٢٦ : ٨٨ ، ٨٩ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) (٣٧ : ٨٣ ، ٨٤ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم) .

٢ — الإنابة : (٥٠ : ٣٢ ، ٣٣ هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) .

٣ — الاطمئنان : (١٦ : ١٠٦ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) (٢ : ٢٦٠ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى) (١٣ : ٢٨ ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

٤ — الهداية : (٦٤ : ١١ ومن يؤمن بالله يهد قلبه) .

٥ — الربط : (٢٨ : ١٠ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) (١٨ : ١٣ ، ١٤ نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططا) .

٦ — التقوى : (٢٢ : ٣٢ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) .

٧ — السكينة : (٤٨ : ٤ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) .

٨ — الرأفة والرحمة : (٥٧ : ٢٧ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة)

٩ — الخشوع : (٥٧ : ١٦ ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) .

١٠ — الشرح : (٩٤ : ١ ألم نشرح لك صدرك) ، (٦ : ١٢٥ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

١١ — الشفاء : (٩ : ١٤ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشفِ صدور قوم مؤمنين) (١٠ : ٥٧ قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور) .

١٢ — نزع الغل : (١٥ : ٤٧ ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ إخوانا على سرر متقابلين) .

١٣ — الثبات : (١١ : ١٢٠ وكلاً نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (٢٥ : ٣٢ كذلك لنثبت به فؤادك) .

١٤ — الطهارة : (٣٣ : ٥٣ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) .

١٥ ـ الوجل : (٨ : ٢ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) .

١٦ ـ الإخبات : (٢٢ : ٥٤ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ، فتُخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) .

١٧ ـ التمحيص والامتحان : (٣ : ١٥٤ وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحّص ما فى قلوبكم) (٤٩ : ٣ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) .

١٨ ـ الألفة : (٨ : ٦٢ ، ٦٣ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولـكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم) .

١٩ ـ اللين : (٣٩ : ٢٣ الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) .

٢٠ ـ الإيمان : (٥٨ : ٢٢ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم وأبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه) .

● هذه أوصاف القلوب . . ولا يملك من يقرأها ويتدبرها إلا أن يدعو الله بهذا الدعاء المؤمن المخبت الذى كان يردده النبى صلى الله عليه وسلم فى إصباحه وإمسائه : « اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك » .

* * *

المقدمة الرابعة : [صفات المنافقين عامة]

● ذكرت فى « المقدمة الثالثة » بعض ما جاء فى القرآن الكريم عن القلوب وأدوائها ، وكوامن الخير فيها ، وكوامن الشر .

وأذكر فى هذه « المقدمة الرابعة » بعض « صفات المنافقين العامة » .

ثم . أذكر فى فصول البحث تفصيلا لهذا الإجمال ، إن شاء الله وقدّر !

غير أننى أبادر فأقول : إن ما جاء فى القرآن الكريم من حديث عن « النفاق » و « المنافقين » يعتبر — لو أحسن فهمه واستيعابه — أساساً « لعلم القلب القرآنى » أو على حد تعبير العصر : « علم النفس القرآنى » .

وأبادر فأدعو المهتمين بالدراسات الإسلامية والإنسانية إلى العناية بهذا النوع من الدراسة ؛ لأنهم بهذا سوف يقدمون للمجتمع البشرى خيراً كثيراً ، وعلماً غزيراً ، وسوف يضيفون إلى التراث الحضارى رصيداً ضخماً من الأخلاق والمعرفة التى تهم الإنسان وتهديه .

وقد وضح القرآن الكريم صفات المنافقين فى عديد من سوره وآياته ، ونكتفى بعرض بعضها لتكون بين يدى القارىء كتمهيد ومدخل :

١ — الضلال والحيرة : فهم غارقون فى الظلمات ، يغتالهم اليأس ، ويعميهم الشك : ماضيهم ذكريات سوداء معتمة ، ويومهم رعب قاتل مدمر ، ومستقبلهم هُوّة سحيقة من العدم والخيبة والضياع ، والناس والأشياء من حولهم أعداء يتربصون بهم الدوائر . وقد ضرب الله لضلالهم وحيرتهم الأمثال فهو يقول : (٢ : ١٧ - ٢٠ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) فهم فى الخيبة جاثمون ، وفى الطغيان يعمهون ، وفى الظلمات لا يبصرون ، وعن الصراط لناكبون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، ولا يؤمنون ، ولا يفقهون !

٢ — التربص ، وتوقع الشر بالمؤمنين : فتراهم ـ دائماً ـ أعداء لكل خير يتمنون مصرعه وينتظرون نهايته ؛ ملأ الحقد والسعار قلوبهم ، وأكل صدورهم ، وصدق القائل : « عجباً للحقد ما أعدله ، بدأ بصاحبه فقتله » ويقول الله تعالى وهو أصدق القائلين : (٤ : ١٤١ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) فترى عوطفهم ـ إن كان لهم عواطف ـ محل مساومة وتجارة ، فهم يبذلونها عند الخوف ! ، وترى حياتهم كلها لحظات ترقب وانتظار وأيامهم كلها فترات توثب وانقضاض .. يتمنون أن تنزل بالمؤمنين كارثة ، أو تحل قريباً من دارهم !

٣ — الجبن والخور : أجسامهم معجبة ، وأقوالهم مطربة ، لكن بواطنهم خربة (٩ : ٥٦ ، ٥٧ ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون ، لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخلا لولَّوا إليه وهم يجمحون) !

٤ — كسالى فى البر والخير ، مسارعون فى الشر والضر : (٩ : ٥٤ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون) (٤ : ١٤٢ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) هكذا هم دائماً يتسكعون كل طريق معبدة ، ويهرعون إلى كل طريق فاسدة ومفسدة (٥ : ٥١ ، ٥٢ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) .

٥ — الكذب : وماذا تنتظر من الضعيف الذليل ، الحائر الضال ، الجبان الخائف ؛ إلا أن يكذب ، ويسرف فى الكذب ، وفى الأيمان الفاجرة ؟ ماذا تنتظر منه ، وهو الذى انقطعت علاقته بكل « قيمة » شريفة ، وامتلأ قلبه بكل

أساليب الخداع والالتواء ؟ (٥٨ : ١٦ ، ٦٣ : ٢ اتخذوا أيمانهم جنة) ستاراً ووقاية ، ومتى استطاع الكذب الصفيق ، أن يستر النفاق والفسوق ؟

٦ — التخلف عن مواطن الكرامة : فهم يكثرون عند الطمع ، ويقلون عند الفزع (٤٧ : ٢٠ ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم . طاعة وقول معروف) .

٧ — التحاكم إلى الطاغوت : فتراهم يهرعون إلى الطاغوت يتحاكمون إليه ، ويصدون صدوداً عن حكم الله (٢٤ : ٤٨ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) !! إن شعارهم دائماً (٩ : ٥٨ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) .

٨ — العزة الآثمة ، فالمنافق لا يقبل وعظاً ولا تعليماً ، لأنه يرى فى نفسه أنه فوق الوعظ والتعليم ، حتى كلمة « اتق الله » يرفضها ، ويرفض أن يسمعها ، أو أن تقال له : (٢ : ٢٠٦ و إذا قيل له اتّق الله أخذته العزة بالإثم) فماذا يكون حاله ومآله ؟ (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) .

٩ — ترويج الإشاعات : وهذه طبيعة الإنسان الفارغ الذى لا يشارك فى الحياة النشيطة من حوله ، إنه يكتفى بأن يذرّ الرماد فى عيون العاملين ، ويتقوّل الأقاويل على الكادحين والمكافحين (٤ : ٨٣ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) .

١٠ — الشماتة : وهم يظهرونها فى صورة الحكمة والكياسة ، وعمق النظر ، وبعد الغور ، والعلم ببواطن الأمور (٩ : ٥٠ إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن

تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) .

● تلك بعض صفات المنافقين ـ لا كلها ـ ، ولو رحت أستقصيها واحدة واحدة ؛ لسودت وجه مئات الصفحات ، ولكننى أكتفى بهذا الإجمال ، لما سيليه من تفصيل .

* * *

المقدمة الخامسة : [تحقيق معنى حديث النفاق]

● وهو الحديث الذى أخرجه البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ؛ إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وقد ترتب على هذا الحديث سؤال مشهور : ـ هل يكون ارتكاب شىء من الخيانة أو الكذب أو الغدر بالعهد أو الفجور فى الخصومة ؛ نفاقاً ، يندرج به صاحبه فى عداد المنافقين الذين قال الله فيهم : (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ؟

وللعلماء أمام هذا الحديث عدة مواقف :

الموقف الأول : وهو للبخارى والحسن البصرى ، وقد أخذوا فيه بظاهر النص ، وقالوا : إن من اتصف بهذه الخصال الذميمة فهو منافق .

الموقف الثانى : أن ذلك خاص بالمنافقين فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستدلوا بما رواه مقاتل بن حيان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر وابن عباس ، قالا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس من أصحابه ، فقلنا : يارسول الله ، إنك قلت : ثلاث من كنّ فيه فهو منافق . وإن صام وصلى وزعم

أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، ومن كانت فيه خصلة منهن ففيه ثلث النفاق » فظننا أنا لم نسلم منهن ، أومن بعضهن ، ولم يسلم منهن كثير من الناس ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : مالكم ولهن إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله فى كتابه :

أما قولى : « إذا حدث كذب » فذلك قول الله عز وجل : (إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ، أفأنتم كذلك ؟ قالوا : لا ، قال : لاعليكم أنتم من ذلك براء !

وأما قولى : « إذا وعد أخلف » فذلك فيما أنزل الله على : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآيات الثلاث ـ « أفأنتم كذلك ؟ قلنا : لا ، والله لو عاهدنا الله على شىء أوفينا به ، قال : لاعليكم أنتم من ذلك براء !

وأما قولى : « إذا ائتمن خان » فذلك فيما أنزل الله على : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) الآية ، فكل إنسان مؤتمن على دينه ، فالمؤمن يغتسل من الجنابة فى السر والعلانية ، والمنافق لايفعل ذلك إلا فى العلانية ، أفأنتم كذلك ؟ قلنا : لا ، قال : لاعليكم أنتم من ذلك براء ! »

وكان من الممكن أن يكون هذا الحديث فيصلا فى فهم الإشكال لولا مافيه من مقال !

الموقف الثالث : قال أصحابه : إن المقصود هو من إذا حدث عن الله كذب عليه وعلى دينه ورسوله ، وإذا وعده أخلف ـ كما ذكر فيمن عاهد الله. وإذا ائتمن على دين الله خان فى السر فكان قلبه على خلاف لسانه .

وهذا الموقف قريب من سابقه ، إن لم يكن هو هو .

الموقف الرابع : وهوموقف ابن العربى ، وملخصه : أنه قد قام الدليل على أن متعمد هذه الخصال لا يكون كافراً ، وإنما يكون كافراً باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته ، أو التكذيب له ، وأنه لو غابت المعاصى ما كان بها كافراً مالم تؤثر فى الاعتقاد .

• وأخلص من هذه الآراء جميعها إلى أن للمنافقين صفات خاصة يتميزون بها من بين سائر الناس ، كالخيانة ، والكذب ، والغدر ، والفجور ؛ تلك التى ذكرها الحديث الشريف ! فهم يأتون هذه الصفات المرذولة ، مستحلين لها ، معتقدين أنها من الحكمة والكياسة ؛ ومن هنا كان ضلالهم ، الذى قادهم إلى استحلال ماحرم الله ، والكفر بما أنزله . . ثم . . ستروا كفرهم ، فكانوا منافقين .

• والرسول صلى الله عليه وسلم إذ يأمر أصحابه وجميع المسلمين بالابتعاد عن هذه الصفات ، إنما يريد لهم أن يبتعدوا عن مواطن الشك ، حتى لا ينزلقوا إلى هذه المهاوى السحيقة التى تؤدى بأصحابها إلى النفاق لامحالة .

• وإن من يقارف هذه الصفات ويتعوّدها ، يتحول إلى منافق لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، بل تختل فى ناظره المعايير ، وتنتكس القيم ؛ فيأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف : (٩ : ٦٧ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم) .

• والحق أن القلب يتأثر بجميع الأعمال التى تأتيها الجوارح من خير أو شر ، نافع أو ضار ، حق أو باطل ، رضاً أو سخط ، طاعة أو معصية ، حلال أو حرام .

ولاشك أن الكذب والخيانة والغدر والفجور من أشد الأمراض فتكا

بالأفراد والجماعات ، ولذلك حذَّر منها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنذر فاعليها بالمآل الوخيم والعذاب الأليم . فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » .

وروى حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً[١] فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة[٢] بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين : قلب أسود مربادّ كالكوز مجخيا[٣] لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض » .

ومن هنا نعلم أن مداخل النفاق هى الكذب والخيانة والغدر والفجور ، كما تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم !

* * *

المقدمة السادسة : [عقوبة المنافقين]

وتدور هذه المقدمة حول سؤالين هامين :

---

(١) عوداً . . عوداً ، أى : تعاد وتتكرر ، وفى رواية : عوداً . . عوداً ، دعاء بالاستعاذة منها ، وقد شبه عرض الفتن على القلب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها .

(٢) النكتة : كل نقطة فى شىء تخالف لونه .

(٣) مجخيا : منكوساً .

السؤال الأول : هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أعيان المنافقين ؟

السؤال الثانى : وما الحكمة فى كفه صلى الله عليه وسلم عن قتلهم مع علمه بأعيانهم ؟

أما « السؤال الأول » فأقول فى الإجابة عليه : إن كثيراً من المنافقين كانوا معروفين للنبى صلى الله عليه وسلم ، ودليل ذلك حديث حذيفة بن اليمان فى تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً الذين هموا أن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظلماء الليل — عند عودته من تبوك — عند عقبة هناك عزموا على أن ينفروا به والناقة ليسقط عنها ، فأوحى الله إليه أمرهم وقد استودع سرهم عند حذيفة — صاحب سره — الذى قيل عنه : إنه علم من النبى صلى الله عليه وسلم جميع أمر المنافقين ؛ حتى إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يدعو حذيفة بن اليمان للاشتراك معه فى الصلاة على موتى المسلمين ، فإذا امتنع حذيفة من الصلاة علم عمر أن المتوفى منافق ، فترك الصلاة عليه عملا بقول الله تعالى : (٩ : ٨٤ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) .

وقد كان المنافقون أنفسهم يحذرون أن تفضح أسرارهم ، وتنشر أخبارهم : (٩ : ٦٤ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) .

ومع هذا ؛ فلقد كان من المنافقين من خفى حالهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول الله تعالى : (٩ : ١٠١ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) ويقول تعالى : (٣٣ : ٦٠ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) فنى هذه الآية دليل على أنه لم يُغرَ بهم ولم يدرك أعيان بعضهم ، وإنما كانت تذكر له صفاتهم ، يقول الله

تعالى : (٤٧ : ٣٠ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) .

وأما « السؤال الثانى » فأقول فيه : إن القاعدة الأساسية التى اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم فى معاملة المنافقين — هى معاملتهم بحسب الظاهر، وتفويض أمر السرائر إلى الله وحده .

وقد انكشف للنبى صلى الله عليه وسلم أمر كثير من المنافقين — كما أسلفت — ولكن الله أمره بالإعراض عنهم (٤ : ٨١ والله يكتب مايبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) (٩ : ٩٥ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس) .

وقد ثبت فى الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضى الله عنه : « أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » يقول ابن كثير[1] : « ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تنفير لكثير من الأعراب عن الدخول فى الإسلام ، ولا يعلمون حكمة قتله لهم ، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر ؛ فإنهم إنما يأخذونه بمجرد مايظهر لهم » .

ويقول القرطبى[2] : وذلك منه صلى الله عليه وسلم : « كما كان يعطى المؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم » .

ويقول الإمام مالك : « إنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لايحكم بعلمه » .

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أمته أن الحاكم لايحكم إلا بظواهر الأدلة ، أما سرائر القلوب فيترك علمها لله وحده !

---

(١) التفسير حـ ١ ص ٤٨ . (٢) حـ ١ ص ١٩٩

فقد جاء فى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : « أيها الناس إن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمّناه وقرّبناه ، وليس لنا من سريرته شىء ، الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمّنه ولم نصدقه ، وإن قال : إن سريرته حسنة » .

المقدمة السابعة : [الذم فى القرآن الكريم]

● إذا كان الذم معناه : الوصف بالقبيح ، والسب والشتم لمجرد التعيير والتشفى سواء كان معناه صحيحاً واقعاً أم كذباً مفترى ؛ فالقرآن منزه عن ذلك : يقول الله تعالى : (٦ : ١٠٨ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الإمام أحمد والبخارى فى الأدب المفرد من حديث عياض بن حمار : « المستبان شيطان يتهاتران ويتكاذبان » .

● أما مافى القرآن الكريم من ذم للكفار والمنافقين ؛ فإنما هو بيان لحقيقة حالهم ، وقبح أعمالهم ، بقصد الإنذار والوعظ ، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ؛ ولذلك نجد هذا الذم موجهاً إلى صفات لا إلى أشخاص ، فهو موجه إلى المشركين والكافرين والمنافقين والفاسقين والمجرمين والظالمين .. وهكذا .

● ومهما عَنَّا أعداء الله وأعداء رسوله فإنه لا يتناولهم بأسمائهم ؛ إلا ما كان من أمر « أبى لهب » وامرأته حمالة الحطب ، « وآزر » .. لإثبات قاعدة هامة مضمونها أن دين الله تعالى مبنى على الأعمال الصالحة ، لا على الأنساب والوساطات[1] !!

« فأبو لهب » هو عم النبى محمد عليه السلام .. وآزر هو والد إبراهيم عليه السلام .. وهذا المعنى الجليل ينبغى أن يتدبره الناس ويفهموه .

(١) تفسير المنار حـ ١١ ص ١٢٩ ، ١٣٠

المقدمة الثامنة : [قصة النفاق فى صدر الإسلام]

كانت المدينة[١] ـ قبل الإسلام مكونة من خمس قبائل : اثنتان من العرب ، هما : الأوس والخزرج ، وثلاثة من اليهود ، هم : بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع ، وكانوا يعيشون على النظم القبلية .

وقد دبّ الخلاف بين الأوس والخزرج ، وقامت بينهم حروب عديدة بسبب خلافات فردية كانت تثور لها النعرة القبلية ، وكان النصر تارة للأوس على الخزرج ، وغالباً للخزرج على الأوس. وقد اشتدت هذه الحروب وامتدت حتى شارك فيها اليهود فتحالفت قريظة والنضير مع الأوس، وتحالفت بنو قينقاع مع الخزرج ومن هذه الحروب يوم السرارة ، ويوم الفجار ، ويوم بُعاث .

وكان يوم بعاث آخر عشرة معارك تقريباً خاضتها الأوس والخزرج حتى سئموا القتال ، وابتدأوا يميلون إلى الوئام والسكينة ، وحاولوا أن يقلدوا دول العرب التى نشأت فى الحيرة والشام وكندة تحت النظام الملكى .

وقد روى المؤرخون:[٢] أن الأوس والخزرج اتفقوا بعد أن سئموا القتال على أن يتوجوا ملكا عليهم : عبد الله بن أُبى بن سلول ، وصاروا يجهزون لهذا التتويج إلى أن دخل النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وعقد معاهدة بينه وبين الأوس والخزرج واليهود .

وبهذا انصرف الناس عن تتويج عبد الله بن أُبى بن سلول .

● ولما فقد عبدالله بن أُبىّ التاج الذى كان يمنّى به نفسه ،والسلطان الذى

---

(١) كان اسمها قبل الإسلام « يثرب » .

(٢) النفاق والمنافقون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للأستاذ إبراهيم على سالم ص ٣٠ .

كان يحلم به ؛ طار قلبه شعاعاً ، والتاعت نفسه ، وظل يحقد على الإسلام والمسلمين حتى آخر لحظة فى حياته .

● وأروى فيما يلى بعض الحوادث التى تدل على الجهامة والعبوس التى لقى بها ابن أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند دخوله المدينة .

فعند شروع النبى صلى الله عليه وسلم فى الانتقال من « قباء » إلى « المدينة » عرج على عبد الله بن أبى يريد النزول عنده تألفاً له ، وكان جالساً محتبياً فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم يريد النزول عنده ، قال : اذهب إلى الذين دعوك وأنزل عليهم . فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله لاتجد فى نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكه ، فلما رد بالحق الذى أعطاك الله شَرِق فذلك الذى فعل به مارأيت فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

● ومن ذلك أيضاً أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب حماراً عليه إكاف وأردف خلفه أسامة بن زيد بن حارثة ، يعود سعد بن عبادة رضى الله عنه من مرض أصابه ، وذلك قبل موقعة بدر ، فمر بعبد الله بن أبى ـ وهو فى ظل أطمة مزاحم ، وحوله أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود ، وفى المسلمين عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ! فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل فسلم ثم جلس قليلا فتلا القرآن ، ودعا إلى الله عز وجل ، وذكر بالله وحذر ، وابن أبى زامّ لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته ، قال يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً ، فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغشه به ، ولاتأته فى مجلسه بما يكره منه ، فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشنا به ، وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله مانحب ، ومما أكرمنا الله به ، وهدانا له .

واستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتبادرون النعال فلم يزل

بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سكنوا ، فقال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى مايكن مولاك خصمك لم تزل تذل ، ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه وإن جذّ يوماً ريشه فهو واقع

وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم دابته فدخل على سعد بن عبادة ، وفى وجهه بعض الغضب ، فقال : والله يارسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً ، ولكأنك سمعت شيئاً تكرهه ، قال : ألم تسمع ما قال أبو حباب ؟ — يعنى عبد الله بن أبى — ثم أخبره بما قال ، فقال سعد : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنا لتنظم له الخرز لنتوجه ، فوالله إنه ليرى أنْ قد سلبته ملكا .

* * *

● فلما جاءت غزوة بدر . . فرح عبد الله بن أبى ، ومن على شاكلته من المنافقين ، وأيقنوا أنها النهاية لهذا الدين الجديد ولأشياعه : ويصف الله — سبحانه — هذه الآمال الواهمة بقوله تعالى : (٨ : ٤٩ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم) .

فلما انتصر المسلمون فى هذه المعركة ، كان هذا النصر بمثابة خنجر موجه إلى صدر عبدالله بن أبى وأشياعه من المنافقين واليهود . . حتى إنهم لم يصدقوا بشارة النصر ، وظلوا يرجفون . .

فقد أرسل النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة : بشيرا لأهل العالية وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة — وهما من أقسام المدينة — ببشران أهلها بما فتح الله على المسلمين ، وأركب زيد بن حارثة ناقته القصواء .

فأما كعب بن الأشرف اليهودى فقد صار يكذبهما ويقول : إن كان محمد قتل هؤلاء فبطن الأرض خير من ظهرها ...

وأما أحد المنافقين فإنه لم يلجأ إلى التكذيب كما فعل اليهودى ولكنه اخترع من عند نفسه رواية لا أصل لها ، وصار يرجف بها فى المدينة ، ولقى أبا لبابة رضى الله عنه ، وقال له : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون معه أبداً ، فقد قتل محمد وغالب أصحابه ، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدرى مايقول من الرعب .

قال أسامة بن زيد : فبلغنى ذلك ، فجئت حتى خلوت بأبى ، وسألته عما يقول الرجل ، وقلت له : أحق ماتقول ؟ قال : إى والله إنه لحق يابنى ، فقويت نفسى ، ورجعت إلى ذلك المنافق فقلت أنت المرجف برسول الله ، لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فليضرب عنقك ، فقال : إنما هو شىء سمعته من الناس يقولونه .

* * *

فلما عاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، منتصراً مظفراً ، وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله ، قال عبدالله بن أُبى بن سلول : « هذا أمر قد توجَّه » ..

ثم أظهر الدخول فى الإسلام ، ودخلت معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته ..

وكان هذا هو البدء الحقيقى لحركة النفاق فى المدينة ، ومن حولها من الأعراب .

"صور" المنافقين
في "سور" القرآن الكريم

فى سورة البقرة

(١) فقدوا النور والأمان :

(الآيات ٨ — ٢٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم : لاتفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون .

أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) .

* * *

فى هذه الآيات — من سورة البقرة المدنية[1] — تصوير لطبيعة بعض

---

(١) عنيت السور المدنية بالحديث عن المنافقين ، وفضح أسرارهم ، ونشر أخبارهم ، ذلك لأن النفاق — كما أسلفت نشأ فى المدينة — فلم يكن فى مكة نفاق ، بل على =

النفوس البشرية ، وما فيها من التواء وعتامة وحيرة وخداع ... إنها نفوس لا تقوى على تحديد موقفها ، وتخاف أن تعرِّف بنفسها ، فلا هى مع الإيمان الصريح ، ولا هى مع الكفر الصريح ..

إنهم يدَّعون الإيمان بالله وباليوم الآخر .. وما هم بمؤمنين !

ويدعون أنهم مصلحون ... وهم مفسدون ، ولكن لا يشعرون !

ويدعون أنهم ليسوا بسفهاء ... وهم سفهاء ، ولكن لا يعلمون !

إنهم يقضون عمرهم ، فى اللف والدوران ، والخداع والتمويه .. وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون !!

وهم مع هذا كله ، وبرغم هذا كله ، يترفعون على جماهير الناس ، وعلى تصورهم للأمور ...

ويعرض علينا هذا النص الكريم — وأمثاله — حقيقة كبيرة ، جديرة بأن يتدبرها المؤمنون ، ليطمئنوا ويثبتوا ويثقوا أنهم على الطريق المستقيم . . . ويتدبرها أعداء المؤمنين ليفزعوا ويرتاعوا ويرتابوا ويعلمون أن كل طوايا نفوسهم ، وخفايا ضمائرهم ... لا تخفى على الله العليم بالسرائر والضمائر !!

وهذه الصفات التى تحملها الآيات .. لا تتوقف عند زمان ، ولا يحدها مكان ، ... بل نلتقى بها كل يوم ، فى كل أرض !!

= العكس من ذلك كان فيها المستكرهون الذين يظهرون الكفر ويضمرون الإيمان كعمار بن ياسر ومن على شاكلته أولئك الذين يقول الله فيهم : ﴿ ١٦ : ١٠٦ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ .

إن نصوص القرآن لا تتقيد « بأسباب النزول » فهى أوسع وأشمل وأبقى وأخلد !

وقد أعطتنا هذه الآيات بعض أخبار المنافقين ، وكشفت لنا الستار عن المخبوء من أسرارهم ، فما عاد يحجبهم عنا حجاب ، وما عاد يخفيهم عنا نقاب !

إنهم قوم سدَّت فى وجوههم كل منافذ العلم والحكمة والنور .. فلم يعودوا يبصرون ، ولا يسمعون ، ولا ينطقون ، ولا يفقهون .. ! (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) !

وبرغم الحيرة التى استولت عليهم ، والضلال الذى أخذ عليهم كل طريق ، نراهم مشغولين بالدعاوى العريضة ، دعاوى الإيمان .. والإصلاح .. والتقوى مجرد كلام يقولونه ، لا يقين يلتزمونه !

(يخادعون الله والذين آمنوا) هكذا يتوهمون ، ولكن الحقيقة أنهم (ما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) .

ثم يمضون فى طريقهم العابث فيزعمون ، أنهم يستهزئون بالمؤمنين (وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون) أرأيت كيف يستهزىء الباطل بالحق ، والغواية بالهداية ، والنفاق باليقين ؟ أرأيت ؟ ... ؟ ولكن . ماذا وراء هذا الاستهزاء الرخيص ، وماذا أمامه ؟ .. لا شىء ... إلا ضحكة بلهاء عربيدة .. ثم يخرس اللسان البذىء إلى الأبد .. (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) !

● ولا يقولن قائل كيف يستهزىء الله . . وقوله فصل ليس بالهزل ، وحكمه دائماً عدل وفضل ؟ !

فهذا فن بليغ من فنون القول اسمه « المشاكلة » نراه فى غير موضع من الكتاب الكريم (٤٢ : ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها) (٢ : ١٩٤ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) والجزاء لا يكون سيئة ، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق وجب ... وكذلك ما نحن بصدده من قوله تعالى : (الله يستهزىء بهم) (٣ : ٥٤ ومكروا ومكر الله) (٨٦ : ١٥ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) إذ ليس منه سبحانه مكر ولا هراء ولا كيد ؛ إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وكيدهم ، ومثله : (٤ : ١٤٢ يخادعون الله وهو خادعهم) (٩ : ٧٩ فيسخرون منهم سخر الله منهم) .

• إن الآيات الكريمة فى هذا النص الكريم ، وغيره ... تتبع دعاوى النفاق فتدحضها واحدة تلو الأخرى.. فهم فى أول هذا النص قالوا : (آمنا بالله وباليوم الآخر) وهى - كما ترى - دعوى لا تحمل معها أى دليل .. ولذلك يردها الله حيث يقول : (وما هم بمؤمنين) ! ! .

وفى قوله تعالى : (وما هم بمؤمنين) إدخال لهم فى زمرة الكافرين ، أو فيما دون زمرة الكافرين ... !

ومن عجيب ماقرأت : أن « محمد بن كرام السجستانى » الذى تنسب إليه فرقة « الكرامية » : يرى أن الإيمان قول اللسان ، وإن لم يعتقد بالقلب ، محتجاً بقوله تعالى : (٥ : ٨٥ فأثابهم الله بما قالوا) إذ لم يقل : بما قالوا واضمروا ، وبقوله عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ؛ فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » ! .

وأقول ، كما يقول القرطبى [1] : « وهذا منهم قصور وجمود وترك نظر

---

(١) جـ ١ ص ١٩٣ .

لما نطق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان معرفة بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأركان »[1] .

وأقول ، كما يقول القرطبي ـ أيضاً ـ : « فما ذهب إليه محمد بن كرام السجستاني وأصحابه هو النفاق وعين الشقاق ، ونعوذ بالله من الخذلان ، وسوء الاعتقاد » .

• (في قلوبهم مرض) مرض الضلال والحيرة .

(فزادهم الله مرضاً) مرض الحقد والحسرة ؛ إذ نصر الله المؤمنين ، وأعلى كلمة الدين .

• (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض) لا تثيروا الحروب ، ولا توقظوا الفتنة النائمة ، ولا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين !! (قالوا : إنما نحن مصلحون) هكذا .. هكذا غرقوا في الفساد حتى ألفوه ، وعاشوا في الضلال حتى استمرأوه ، وحسبوه صلاحاً وهدى ، وكانوا كما قال الله تعالى : (٣٥ : ٨ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) (٦ : ٤٣ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) (١٨ : ١٠٣ قل هو ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) .

• وبعد أن نهوا عن المنكر ، وقيل لهم : (لا تفسدوا في الأرض) أمروا بالمعروف ، فقيل لهم : (آمنوا كما آمن الناس) وهذا أسلوب الإسلام وطبيعته ، التخلية أولا ، والتحلية ثانياً ...

• ولكنهم هزئوا بالنهي ، وقالوا : (إنما نحن مصلحون) وهزئوا بالأمر ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه .

فقالوا : (أنؤمن كما آمن السفهاء) ؟ وقال الله لهم ، وقوله الحق (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) !

• إنهم ألفوا الطغيان وحالفوه ، فكانت عاقبة أمرهم ماقاله الله : (الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) ولهذه الآية نظائر فى الذكر الحكيم كقوله تعالى : (١٩ : ٧٥ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) (٣ : ١٧٨ إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً) (٦ : ١١٠ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) .

والطغيان : الغلو فى العتو ، ومجاوزة الحد فى الكفر .

والعمه : ـ مثل العمى ـ غير أن العمى عام فى عمى البصر وعمى البصيرة ، أما العمَه فهو عمى البصيرة وحدها !!

• (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) لم يكن لديهم هدى حتى يبيعوه ، ولا إيمان حتى يضيّعوه ، وإنما كانت أسباب الهدى ميسرة لهم لو أرادوا ، وسبله ممهدة بين أيديهم لو أحبوا ، ولكنهم أخلدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم ، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير !

• فكان عاقبة أمرهم خسراً (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) تقرير لما هم عليه من خسران وبوار ، أو دعاء عليهم باستمرار الفشل والخسارة والصغار ! .

* * *

ثم يضرب الله للمنافقين مثلين ..

ونلتقى « بابن القيم » فى بحث بديع له حول هذين المثلين ..

قال رحمه الله وأثابه فى كتابه : « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو

المعطلة والجهمية[1]» : « فى هذه الآية ، شبه سبحانه ، أعداءه المنافقين: بقوم أوقدوا ناراً لتضىء لهم ، وينتفعوا بها ، فلما أضاءت لهم النار ، فأبصروا فى ضوئها ما ينفعهم ويضرهم وأبصروا الطريق - بعد أن كانوا حيارى تائهين - فهم كقوم سفر[2] ضلوا عن الطريق ، فأوقدوا النار لتضىء لهم ، فلما أضاءت لهم — فأبصروا وعرفوا — طفئت تلك الأنوار ، وبقوا فى الظلمات لا يبصرون ، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث — فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب : مما يسمعه بأذنه ، ويراه بعينه ، ويعقل بقلبه — وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى : فلا تسمع قلوبهم شيئاً ، ولا تبصره ، ولا تعقل ما ينفعها ، وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ، ولا بصر ، ولا عقل ، والقولان متلازمان .

وقال فى صفتهم : (فهم لا يرجعون) لأنهم قد رأوا فى ضوء النار ، وأبصروا الهدى ، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا .

وتأمل قوله تعالى : (أضاءت ما حوله) كيف جعل ضوءها خارجاً عنه منفصلا ، ولو اتصل ضوءها به ولابسه ، لم يذهب ولكنه كان ضوء مجاورة لا ملابسة ومخالطة ، وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية ، فرجع الضوء إلى معدنه ، وبقيت الظلمة فى معدنها .

وتأمل قوله تعالى : (ذهب الله بنورهم) ولم يقل : بنارهم ، ليطابق أول الآية ! فإن النار فيها إشراق وإحراق : فذهب بما فيها من الإشراق — وهو النور — وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق — وهو النار —

وتأمل كيف قال : (بنورهم) ولم يقل : بضوئهم، مع قوله : (فلما أضاءت ما حوله) لأن الضوء زيادة فى النور ؛ فلو قيل : ذهب الله بضوئهم ، لأوهم

---

(١) ص ١٢ وما بعدها . (٢) مسافرون .

الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل ، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادة ، وأيضاً فإنه أبلغ فى النفى ، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم ؛ وأيضاً فإن الله تعالى سمى كتابه (نوراً) ورسوله صلى الله عليه وسلم (نوراً) ودينه (نوراً) وهداه (نوراً) والصلاة (نور) فذهابه سبحانه بهم ؛ ذهاب بهذا كله .

وتأمل مطابقة هذا المثل — لما تقدمه من قوله : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التى تضمنت هول الضلالة والرضا بها — بدلا عن النور — فبذلوا الهدى والنور ، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة ، فيالها من تجارة ما أخسرها وصعقة ما أشد غبنها .

وتأمل كيف قال تعالى : (ذهب الله بنورهم) فوحده ، ثم قال (وتركهم فى ظلمات) فجمعها ، فإن الحق واحد : هو صراط الله المستقيم — الذى لا صراط يوصل إليه سواه — وهو عبادته وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لا بالأهواء والبدع ... بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة ولهذا يفرد سبحانه الحق ويجمع الباطل كقوله تعالى : (٢ : ٢٥٧ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) وقال تعالى : (٦ : ١٥٣ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فجمع سبل الباطل ، ووحد سبيل الحق .

قال الحسن رحمه — معقباً على هذا المثل — هو المنافق أبصر ثم عمى ، وعرف ثم أنكر .

* * *

ويقول « ابن القيم » عن المثل الثانى :

« ثم ضرب الله ـ سبحانه ـ لهم مثلا آخر مائياً . .

فشبه الهدى الذى هدى به عباده بالصيب ؛ لأن القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر ، وشبه نصيب المنافقين من هذا الهدى ؛ بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق ، ولا نصيب له ـ فيما وراء ذلك ـ مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب ؛ وأن تلك الظلمات التى فيه ، وذلك الرعد ، والبرق ، مقصود لغيره ، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب ؛ فالجاهل لفرط جهله ـ يقتصر على الإحساس بما فى الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد ، وتعطيل المسافر عن سفره ، والصانع عن صنعته ، ولا بصيرة له تنفذ إلى مايؤول إليه أمر ذلك الصيب فى الحياة والنفع العام ، وهكذا شأن كل قاصر النظر ، ضعيف العقل ، لايجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب ، وهذه حال أكثر الخلق ـ إلا من صحت بصيرته ـ فإذا رأى ضعيف البصيرة ما فى الجهاد من التعب والمشاق ، والتعرض لإتلاف المهجة ، والجراحات الشديدة . . لم يقدم عليه ؛ لأنه لم يشهد مايؤول إليه من العواقب الحميدة ، والغايات التى إليها تسابق المتسابقون ، وفيها تنافس المتنافسون .

وحال هؤلاء حال الضعيف البصيرة والإيمان الذى يرى ما فى القرآن من الوعد والوعيد ، والزواجر والنواهى ، والأوامر الشاقة على النفوس التى تفطمها عن رضاعها من ثدى المألوفات والشهوات ـ والفطام على الصبى أصعب شىء وأشقه ـ والناس كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء ، وأدرك الحق علماً وعملا ومعرفة ، فهو الذى ينظر إلى ماوراء الصيب وما فيه ـ من الرعد والبرق والصواعق ـ ويعلم أنه حياة الوجود .

هذا كلام ابن القيم حول المثلين نقلته ببعض التصرف ، وهو كلام كما ترى ينبغى أن يتأمله المسلم ويتفهمه .

ولقد عرفت — وعرفت — من المثلين كيف أن المنافقين فقدوا النور والأمان فى هذه الحياة الدنيا .

وتوضح لنا « سورة الحديد » كيف أنهم فقدوا النور والأمان فى الحياة الآخرة كذلك . . . (٥٧ : ١٢ — ١٥ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يقبل منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير) .

* * *

(ب) أمانة الكلمة :

(الآيات : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) .

* * *

● تعرض هذه الآيات صورة لنموذج بشرى من نوع غريب !!

إنه المخلوق الذى يقدم نفسه لك من خلال حديثه ، فتراه وكأنه صيغ من

الفضل والنبل والحب والخير والطهارة ..! ثم تخبره فتجده مسخاً غريباً يكره كل القيم ، ويتنكر لكل المقدسات .

وقد اختلف المفسرون حول سبب نزول هذه الآيات . . . والذى أميل إليه أنها عامة فى جميع من أظهر غير مايضمر ، قال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء إنها : « نزلت فى كل مبطن كفراً أو نفاقاً أو كذباً أو إضراراً ، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك » .

• وقريب من معنى الآية مارواه الترمذى فى بعض كتب الله تعالى : « إن من عباد الله قوماً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمرّ من الصبر ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يشترون الدنيا بالدين ، يقول الله تعالى : أبى يغترون ، وعلىّ يجترئون ، فبى حلفت لأسلطن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران » ! !

• (ومن الناس من يعجبك قوله) أما عمله فإفساد وإلحاد وعزة آثمة ! وحتى الكلام لا يستقيم له إلا إذا كان فى أمور (الحياة الدنيا) وشئونها ! لأنها مبلغ علمه ، وغاية همه .

أما أمور الدين والأخلاق واليوم الآخر . . فبينه وبينها بعد مابين المشرقين !!

• (ويشهد الله على مافى قلبه) اليمين الفاجرهى دائماً « الجُنَّةُ » التى يستتر وراءها .. وما أكبره جرماً أن يشهد الإنسان الله وهو كاذب !! يقول رشيد رضا : قال العلماء إن هذه — يعنى : قولهم الله يشهد أو يعلم أننى كذا — آكد من اليمين ، وعن بعض الفقهاء من قاله كاذباً يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله تعالى » ثم يقول : « وأقول إن أقل مايدل عليه : عدم المبالاة بالدين ولو لم يقصد صاحبه نسبة الجهل إلى الله عز وجل ، فهو قول لا يصدر إلا عن منافق » .

• (وهو ألد الخصام) شديد الخصومة ، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصيم » .

وهكذا هم المنافقون - إن خاصموا فجروا ، واستباحوا كل صنوف الكيد والدس والغيبة والمكر والكذب والوقيعة ! !

• تَلْقى المنافق ، فيعجبك حديثه وزوقه (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) لأنه يألف الخراب كالبوم ، ويحب الظلام كالخفافيش . . !

• ويرفض المنافق أن تقول له (اتق الله) أو أن تحدثه أى حديث عن الله ، إنه يعيش فى « برجه العالى » فيرى الناس كلهم دونه ! . . إنه كما يقول الله تعالى : (٢٢ : ٧٢ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) .

• (فحسبه جهنم) فيها كفايته ونهايته ؛ جهنم التى وقودها الناس والحجارة ، جهنم التى يكبكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون ، جهنم الحطمة ؛ نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة . جهنم التى لاتبقى ولا تذر ، جهنم التى تكاد تميز من الغيظ ! !

(ولبئس المهاد) وآه . . مما تحمله كلمة (المهاد) من سخرية قاصمة ، ولوعة لاتنتهى ! !

* * *

عَبْر ثلاث آيات .. قدَّم القرآن الكريم هذه الصورة الواضحة الملامح ، البيِّنة السمات ، لهذا النموذج البشرى الذى نلقاه كل يوم . . فى كل سبيل . .

إنه « نفاق الكلمة » . .

وللكلمة اعتبارها وحسابها فى نظر الإسلام ، وتشريع الإسلام ، كيف

(تقال) ، وكيف (تكتب) وكيف (يستمع) إليها ، وكيف (يلتزم) بها الإنسان ، وكيف (يتحمل) تبعاتها ثواباً أو عقاباً ! !

حتى الكلمة التى لم تولد بعد ، ومازالت تعيش فى الضمائر هواجس ووساوس ، عند الله علمها : (٥٠ : ١٦ - ١٨ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) .

فليتق الله أولئك الذين حملوا أمانة الكلمة . .

إن الكلمة فى فم الصحفى . . أمانة . .

والكلمة فى فم الإذاعى . . أمانة . .

والكلمة فى فم المعلم . . أمانة . .

والكلمة فى فم المؤلف . . أمانة . .

والكلمة فى فم الخطيب . . أمانة . .

والكلمة فى كل الأفواه . . أمانة . .

فيامن حملتم أمانة الكلمة : (٤ : ٥٨ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) .

فى سورة آل عمران

(١) النفاق اليهودى المتآمر :

(الآية : ٧٢ . وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) .

* * *

• قالوا فى « سبب نزول » هذه الآية أن عبد الله بن الصيف ، وعدى ابن زيد ، والحارث بن عوف : ائتمروا فيما بينهم على أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين ؛ حتى إذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ؛ فيظن ضعفاء الإيمان أنهم لايهدفون إلا إلى الحق ، ولا يسعون إلا وراءه ، ولهذا أسلموا ؛ فلما بان لهم عوار الإسلام وبطلانه ارتدوا عنه وهجروه ! !

ولهذا جاء فى آخر الآية : (لعلهم يرجعون) أى : لعلهم يرجعون عن الإسلام كما رجعتم ، ويكفرون به كما كفرتم ! فتكونون سواء ! !

• وتظهر الفائدة من « فضح » هذه المؤامرة - كما يقول الرازى - من وجوه ثلاثة :

الأول : أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم ، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب ؛ فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً .

الثانى : أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة ؛ لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكانت ربما أثرت فى قلب بعض مَنْ فى إيمانه ضعف ! !

الثالث : أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحِيَل والتلبيس ! !

• وهذه الآية تكشف لنا سِرّ تشريع « قتل المرتد » ؛ فإن الإسلام قصد من وراء هذا التشريع إلى تخويف أولئك الذين يدبرون المكائد لإرجاع الناس عنه بالتشكيك فيه .

* * *

• والسؤال الذى ينبغى أن نواجهه ، ونحن نتأمل وجه هذه الآية ـ هو : هل نجح هـذا المخطط اليهودى القديم ؛ فى صد الناس عن الإسلام ؟

والجواب : لا . . فإن المتآمرين الذين كانوا يدخلون فى الإسلام أول النهار ، كان الإسلام يغزو قلوبهم بنوره وهداه ، ويستولى على مشاعرهم بفضائله ومثله ، فما كانوا يستطيعون أن يفلتوا من تأثيره ، وما كانوا يطيقون الحياة بعيداً عن ظلاله !!

ولذلك وجدنا المتآمرين يتواصون فيما بينهم : (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) ! ! !

• والسؤال الثانى الذى ينبغى أن نواجهه أيضاً ، ونحن نتأمل وجه هذه الآية ـ هو : هل نجح المخطط ـ الصهيونى الاستعمارى ـ الحديث فى غزو الإسلام فكرياً وحضارياً ، وهزّ قيمه فى نفوس بعض أبنائه ؟ ؟

ـ ومما يحزّ فى النفس ، ويقضّ المضجع : أن تكون الإجابة هذه المرة « نعم » ! !

نعم . . تعاونت أقلام وأفلام ودور نشر وقاعات بحث ومحافل ومؤتمرات على تشويه جلال الإسلام ، وتضليل أهله . . بحجة البحث العلمى ، والدراسات الاستشراقية ! ! حتى وجدنا الألوف « غير المؤلفة » من حملة الأسماء الإسلامية ، يخرجون على الناس من أروقة الفلسفة والفكر والبحث والفن

والشعر والصحافة . . ثم يعلنون على الناس أنهم درسوا الإسلام وبحثوه ؛ فوجدوه ديناً جامداً خاملا رجعياً متخلفاً لا يتفق مع الحياة ، ولا يتواءم مع التطور !!!

ولكى تكون « شهاداتهم » ذات قيمة . !

فإنهم يبرزون «البطاقة الشخصية» التى تثبت أنهم مسلمون !! و«الدبلوم» العلمى الذى يثبت أنهم « مستغربون » !!

● إنهم يحملون الأسماء الإسلامية . وجه النهار !!

ثم هم بأفعالهم وأقوالهم .. يكفرون آخره !!

* * *

(ب) موتوا بغيظكم :

(الآيات : ١١٨ — ١٢٠ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ، إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط) .

* * *

● قالوا : إن هذه الآيات نزلت فى اليهود ؛ لأن السياق والسباق معهم .

وقيل : إنها نزلت فى المنافقين لقوله تعالى فيما بعد : (وإذا لقوكم قالوا : آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وهذه صفة المنافقين كقوله تعالى فى سورة البقرة : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا وإذا خلوا إلى

شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون) .

• والآيات تدمغ المنافقين بعدة اتهامات :

١ — لا يألونكم خبالا .

٢ — ودوا ما عنتم .

٣ — قد بدت البغضاء من أفواههم .

٤ — ما تخفى صدورهم أكبر .

٥ — ها إنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم .

٦ — إذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ !!

٧ — إن تمسسكم حسنة تسؤهم .

٨ — وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ! !

ومع هذا فإنها كلها اتهامات لا تخيف أهل الحق ! ! إنها غثاء كغثاء السيل و « فقاقيع » كفقاقيع « الصابون » !!

ولذلك كان الرد عليها كلها . . (قل موتوا بغيظكم) !!

• و (البطانة) فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) هم الأصدقاء الذين تفضى إليهم بسرك ، وجميع أمرك !!

• وقول الله تعالى : (لا يألونكم خبالا) معناه : لا يقصرون فى إفسادكم ، وإيقاع الضرر بكم .

وقوله : (ودوا ما عنتم) معناه : تمنوا ما يهلككم ، لأن العنت هو شدة الضرر والمشقة !!

• (قد بدت البغضاء من أفواههم) أى : ظهر البغض المستتر ، وانكشف الحقد المحجوب ، فطفح على الوجوه ، ونمت عنه الألسنة ، وتسلل من بين الشفاه ... إنهم على الرغم من ضبط النفس ، والتكتم الشديد ، وعدم البوح بما فى القلوب

تتفلت منهم بعض البوادر التى تنم عما يضمرون ، وتبدى ما يكتمون ، وذلك لأن كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات الألسنة !!

(وما تخفى صدورهم أكبر) مما ظهر .

(قد بيننا لكم الآيات) وأرشدناكم إلى ما خفى عنكم من أمر أعدائكم والله أعلم بأعدائكم : (إن كنتم تعقلون) .

• (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم) يقول ابن جرير فيما يحدث به عن قتادة : « فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوى إليه ويرحمه ، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه » !!

• (وتؤمنون بالكتاب كله) فأنتم تؤمنون بكتابهم ، وهم لا يؤمنون بكتابكم ، يقول الزمخشرى : « فيه توبيخ شديد بأنهم فى باطنهم أصلب منكم فى حقكم » ونحوه قوله تعالى : (٤ : ١٠٤ فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) .

• (وإذا لقوكم قالوا : آمنا) نفاقاً وتغريراً .

• (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أى : تحسراً وتأسفاً ، حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا .

وعض الأنامل عادة النادم العاجز ، والمغتاظ إذا عظم حزنه على خيبة امله !

• (قل : موتوا بغيظكم) دعاء عليهم بأن يشتد غيظهم ، ويستبد بهم حتى يقتلهم ويهلكهم ، والمراد بزيادة الغيظ : زيادة ما يغيظهم من قوة الإسلام وعزة أهله .

• (إن الله عليم بذات الصدور) أى : إن الله عليم بما هو أخفى مما تخفونه من عض الأنامل غيظاً ، فهو — سبحانه — عليم ببواطن الأمور ، وخبايا الصدور .

• (إن تمسسكم حسنة تسؤهم) والحسنة : هى الظهور على العدو ، وانتشار الدين ، واندحار الكافرين ، والتمكين لعباد الله فى الأرض !

• (وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) والسيئة تكون بالهزيمة ، أو الاختلاف ، أو ذهاب الريح ، أو الجدب ، أو شدة البلاء .

وتأمل لفظ : (إن تمسسكم حسنة) ولفظ : (وإن تصبكم سيئة) .

فقد عبر — سبحانه — فى جانب الحسنة (بالمس) وفى جانب السيئة (بالإصابة) مما يدل على أن الشىء القليل من الخير إذا ناله المسلمون فزع له اليهود والمنافقون ، واما إذا أحدقت المصائب بالمسلمين ، وأحاطت بهم النكبات من كل جانب ، فإن هذا يصبح مشهداً مفرحاً لهم ، يملأ قلوبهم بهجة ورضى وانشراحا !

• (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) هذه بشارة بالنصر ، وإشارة إلى الطريق .

وما طريق النصر ، إلا الصبر والتقوى .

الصبر على الشدائد والمحن والمصائب والثبات على طاعة الله ، والكف عن معاصيه .

والتقوى : إنما تكون بالحرص على ما يرضى الله ، والبعد عما يسخطه ويأباه .

• (إن الله بما يعملون محيط) قرىء بياء الغيبة (يعملون) على معنى أنه — سبحانه — يعلم ما يدبره أعداؤكم لكم من كيد ومكر ؛ فيعاقبهم ويخزيهم ويحبط كيدهم ، وما يدبرون !!

وقرىء بتاء الخطاب (تعملون) أى : بما تعملون من الصبر والتقوى فيجازيكم بما أنتم له أهل من الجنة والمغفرة .

* * *

وبعد : فهذه آيات الله بين ايدينا ، وملء اسماعنا وابصارنا ، تهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . . ترى هل استجبنا لما يحيينا ؟

وهل انتفعنا بالدروس المستفادة ؟

هل قلنا لأعدائنا واعداء ديننا الذين تآمروا بنا . . وبأرضنا . . وبوجودنا . وبتراثنا . . وما زالوا يتآمرون :

(قل موتوا بغيظكم) ؟

* * *

(ح) غزوة التمحيص :

(الآيات : ١٦٦ - ١٦٨ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ، لو أطاعونا ما قتلوا ، قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) .

* * *

● جاءت هذه الآيات فى سياق الحديث عن « غزوة أحد » .

وقد نزل فى شأن غزوة أحد (ستين) آية من سورة آل عمران ؛ تبدأ بقوله تعالى — فى الآية ١٢١ — : (وإذ غدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم) . وتنتهى بقوله تعالى - فى الآيتين ١٧٩ ، ١٨٠ - (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ، ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير) .

غزوة أُحد :

ولكى نعى ما تضمنته الآيات التى صدرنا بها هذا البحث : من صفات المنافقين الدنيئة ، ومواقفهم المخزية ؛ ينبغى أن نقف قليلا لنراجع مارواه كتّاب « السيرة » عن غزوة أحد [١] ؛ قالوا :

● لما خذل الله المشركين فى « غزوة بدر » ورجعت فلولهم إلى « مكة » مقهورين موتورين نذر أبو سفيان بن حرب أن لا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمداً ! !

ولما رجع إلى مكة أخذا يؤلّب على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وقد رصد المشركون لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مال العير التى جاءوا بها من الشام ، والتى كانت السبب المباشر « لغزوة بدر » ! ! وكان مال هذه العير ـ كما فى الصيرة الحلبية : خمسين ألف دينار ، ربحت مثلها ! !

● فاجتمعت قريش للحرب ، وخرجت بحدها وجدها وأحابيشها [٢] ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة فكانوا نحو ثلاثة آلاف [٣] وأخذوا معهم نساءهم؛ التماس الحفيظة ، وأن لا يفروا؛ فإن الفرار بالنساء عسر ، والفرار دونهن عار . وكان مع أبى سفيان ـ وهو القائد ـ زوجه هند ابنة عتبة؛ فكانت تحرض

---

(١) أحد ـ بضمتين ـ جبل على نحو ميل من المدينة (جهة الشمال) .

(٢) الحد ـ بفتح المهملة ـ : البأس ، والجد ـ بفتح المعجمة ـ : العظمة أو الغنى . والأحابيش : حلفاء قريش من اليهود والمشركين سموا بذلك لأنهم تحالفوا فى الحبشى ـ وهو بضم الحاء ـ جبل بأسفل مكة ؛ تحالفوا أنهم مع قريش يد واحدة ، ما سجا ليل ، ووضح نهار ، ومارسا حبشى مكانه .

(٣) قال ابن كثير فى البداية : كانت فى شوال سنة ثلاث . قاله الترمذى وقتادة وموسى بن عقبة وابن إسحاق ومالك .

الغلام « وحشيا » الحبشى الذى أرسله مولاه جبير بن مطعم ليقتل « حمزة » عم النبى صلى الله عليه وسلم بعمه طعيمة بن عدى الذى قتل ببدر !! وكان هذا الحبشى ماهراً فى الرمى بالحربة على بُعد ، قلَّما يخطىء ، فكانت « هند » كلما رأته فى الجيش تقول له :« ويها أبا دسمة ! ! اشف واشتف »! تخاطبه بالكنية تكريماً له .

وذكر الحلبى : أنهم ساروا — أيضاً — بالقيان والدفوف والمعازف والخمور ! ! .

● فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروج أبى سفيان ؛ استشار أصحابه كعادته أيخرج إليهم أم يمكث فى المدينة ؟ . وكان رأيه هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتحصَّن المسلمون بالمدينة ؛ فإن دخلها العدو عليهم قاتلوه على أفواه الأزقة ، وقاتله النساء من فوق البيوت ! !

وقد وافقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هذا الرأى أكابر المهاجرين والأنصار ! !

كما وافقه « عبد الله بن أبى بن سلول » لا عن حكمة وسياسة وبعد نظر ، ولكن عن جبن وخور ورغبة فى التخلف وإيثار للعافية ! !

وقد أشار على النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة أكثرهم من الشباب ، وممن كان قد فاتهم الخروج يوم بدر ، لشدة رغبتهم فى القتال ! ! فمازالوا يناشدونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى دخل فلبس لأمته[1] بعد صلاة الجمعة ، وكان قد أوصاهم فى خطبتها ، ووعدهم بأن لهم النصر ماصبروا . ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناس ، وقالوا: استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) اللأمة : الدرع ، وقيل : السلاح .

ولم يكن لنا ذلك ؟ وقالوا له : استكرهناك ، ولم يكن لنا ذلك : فإن شئت فاقعد » فقال : « ما كان لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه » !

● وفى سحر يوم السبت خرج بألف ، فلما كانوا « بالشوط » بين المدينة وأحد انعزل عنه عبدالله بن أبى بن سلول - زعيم المنافقين - بنحو ثلث الجيش!! وقال : « أطاعهم وعصانى — وفى رواية : أطاع الولدان ومن لا رأى له — فما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس » فرجع بمن اتبعه من قومه أهل النفاق والريب ، فتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة يقول : « ياقوم أذكركم الله أن لاتخذلوا قومكم ونبيكم ، تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع . ولكن نرى أنه لا يكون قتال .

● وقد كان المسلمون نحو ثلث المشركين الذين خرجوا إليهم ، فأمسوا وقد ذهب من الثلث ثلثه !! وهمت بنو سلمة من الأوس ، وبنو حارثة من الخزرج أن تفشلا فعصمهما الله تعالى ، وفيهم نزلت الآية الكريمة . (الآية ١٢٢ — إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

● وقد كان خروج المنافقين من صفوف المؤمنين خيراً لهم كما قال تعالى فى مثل ذلك الموقف يوم تبوك : (٩ : ٤٧ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) : وإنما ارتأى عبد الله بن أبى عدم الخروج ليكتفى أمر القتال أو خطره حرصاً على حياته ، وإيثاراً لها على إعلاء كلمة الله ، فكانت موافقته للرسول — صلى الله عليه وسلم — فى الرأى موافقة ظاهرية ، إذ أنه كان مخالفاً له فى علة عدم الخروج وسببه .

● ومضى النبى — صلى الله عليه وسلم — بأصحابه حتى مرّ بهم فى حرة بنى

حارثة ، وقال لهم : « من رجل يخرج بنا على القوم من كثب — قرب — لا يمر بنا عليهم ؟ فقال أبو خيثمة — أخو بنى حارثة بن الحارث — : أنا يا رسول الله . فنفذ به فى حرة قومه بنى حارثة وبين أموالهم حتى سلك فى مال لمربع بن قيظى — وكان رجلا منافقاً ضرير البصر — ، فلما سمع حِسّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قام يحثو فى وجوههم التراب ، ويقول : إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطى[1] . قال ابن هشام : وقد ذُكر لى أنه أخذ حفنة من تراب فى يده ، ثم قال: والله لو أنى أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقتلوه !! فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر » !!

● ومضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى نزل الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى إلى الجبل ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد . وقال : « لا يقاتلن أحد حتى نأمر بالقتال » .

● فلما أصبح يوم السبت تعبى للقتال ، وهو فى سبعمائة فيهم خمسون فارساً ، وظاهر بين درعين ـ أى ، لبس درعاً فوق درع ـ واستعمل على الرماة ـ وكانوا خمسين ـ عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف ، وهو معلم يومئذ بثياب بيض ، وقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك : لا نؤتين من قبلك ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وجعل على إحدى الجنبتين ، الزبير بن العوام ، وعلى الأخرى ، المنذر بن عمرو .

● ثم استعرض ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشبان يومئذ ، فرد من استصغره عن القتال ، وأجاز أفراداً من أبناء الخامسة عشرة ، قيل : لسنهم ، وقيل ،

---

(١) الحائط : البستان .

لبنيتهم وطاقتهم، وهو الصواب ؛ فإنه كان قد رد سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ولهما خمس عشرة سنة ، فقيل له : يارسول الله إن رافعاً رام فأجازه ، فقيل له : فإن سمرة يصرع رافعاً فأجازه . وروى أنهما تصارعا أمامه .

● وتعبّأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل معهم مائتا فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل ، وابتدأت الحرب بالمبارزة .

ولما اشتبك القتال ، والتقى الناس بعضهم ببعض قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى معها ، وأخذن الدفوف يضربن خلف الرجال ، ويحرضنهم ، فقالت هند فيما تقول :

ويهـا بنى عبد الدار ويهاً حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

● وروى أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان يقول عند سماع نشيد النساء : « اللهم بك أجول ، وبك أصول ، وفيك أقاتل ، حسبى الله ونعم الوكيل » .

وكان أول من بدر من المشركين أبو عامر عبد بن عمرو بن صيفى [1] ،

---

(١) سيأتى تفصيل لخبره عند الحديث عن أخبار مسجد الضرار « فى سورة التوبة » وهو أحد رءوس المنافقين .

وكان رأس الأوس فى الجاهلية ؛ فلما جاء الإسلام شرق به ، وجاهر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالعداوة ، وخرج من المدينة إلى مكة يؤلب قريشاً على قتاله ، ويزعم أن قومه إذا رأوه أطاعوه ، ومالوا معه ، وكان يسمى « الراهب » فسماه النبي — صلى الله عليه وسلم — « بالفاسق » . ولما برز نادى قومه ، وتعرف إليهم ، فقالوا له : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ! ! ، فقال : لقد أصاب قومى بعدى شر !! .

● وقد أبلى المسلمون فى هذه المعركة بلاء حسناً :

— فهذا هو ... عبد الله بن جحش يدعو ربه قائلا : اللهم إنى أدعوك أن ألقى العدو غداً ، فيقتلونى ، ثم يبقروا بطنى ، ويجدعوا أنفى وأذنى ، ثم تسألنى : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك !! .

— وهذا هو .. عمرو بن الجموح — وقد كان أعرج شديد العرج — وكان له أربعة بنين شباب ، يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم !! إذا غزا ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ! وقد وضع الله عنك الجهاد ؛ فأتى عمرو ابن الجموح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يارسول الله : إن بنى هؤلاء يمنعوننى أن أخرج معك ، والله إنى لأرجو أن أستشهد ، فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد » وقال لبنيه : « وما عليكم أن تدعوه ؟ لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ » فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل يوم أحد شهيداً .

— وهذا هو ... أبو دجانة الذى أعطاه النبى — صلى الله عليه وسلم —

سيفه[١] ؛ فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة « عصابة الموت » وهكذا كانت تقول له ، إذا تعصب بها فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر فى الكيول[٢] أضرب بسيف الله والرسول

قال ابن إسحاق : فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله . إلى آخر ما قال : ومما كان منه أنه وصل إلى هند امرأة أبى سفيان قائد المشركين فوضع السيف على مفرق رأسها ولم يقتلها ـ يقول : فأكرمت سيف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أقتل به امرأة !!

● ولما انهزم المشركون وولوا إلى نسائهم مدبرين ، ورأى الرماة من المسلمين هزيمتهم تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه . وقالوا : ياقوم الغنيمة الغنيمة ، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يرجعوا وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ! !

فلما رأى فرسان المشركين الثغر خلا من الرماة كروا حتى أحاطوا بالمسلمين .

● قالوا : وصرخ صارخ بأعلى صوته : إن محمداً قد قتل ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قد سقط فى حفرة من الحفر التى حفرها أبو عامر الفاسق

---

(١) رمى أحمد وابن إسحاق وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخذ سيفاً يوم أحد ، فقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ حتى قام أبو دجانة فقال : وما حقه ؟ قال : أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى ، قال : أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه » .

(٢) الكيول — بتشديد الياء — آخر صفوف الحرب .

فجرح وجهه الشريف ، وكسرت رباعيته اليمنى ـ قال الزبير : فيما ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب مادون أخذهن قليل ولا كثير . إذ مالت الرماة إلى العسكر ، حتى كشفنا القوم وخلوا ظهورنا للخيل ، فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ : « ألا إن محمداً قد قتل » ، فانكفأنا ، وانكفأ علينا القوم .. ووقع ذلك فى نفوس كثير من المسلمين : فانهزموا ، وكسرت قلوبهم ، ومرّ أنس ابن النضر بقوم من المسلمين فيهم عمر وطلحة ، فقال : ما تنظرون ؟ فقالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على مامات عليه ؛ ثم استقبل الناس ، ولقى سعد بن معاذ ، فقال : ياسعد ، إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد ، فقاتل وقتل ووجد به سبعون ضربة ! !

● وأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نحو المسلمين وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك ، فصاح بأعلى صوته ، يامعشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأشار إليه بيده أن اسكت ! !

● وأدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبى بن خلف » وهو مقنع بالحديد ، على جواد له يقال له « العود » كان يعلفه بمكة ويقول : « أقتل عليه محمداً » ، وكان قد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبره ، فقال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » ، فلما اقترب منه استقبله مصعب بن عمير ، فقتل مصعباً ، وجعل يقول : أين هذا الذى يزعم انه نبى ؟ فليبرز لى فإنه إن كان نبياً قتانى ! !

فتناول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحربة من الحارث بن الصمة فطعنه بها فجاءت فى ترقوته ـ فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ـ فكرّ الخبيث

منهزماً ، فقال له المشركون : والله ما بك من بأس ! فقال : والله لو كان مابى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعون ! ثم مات فى طريق عودته برابغ ! !

ولم يقتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حياته أحدا سواه ! ! ولعله لو كان وجد مندوحة عن قتله لما قتله ! !

● ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم ابن أبى قحافة ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ، فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر نفسه أن قال : ياعدو الله : إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله لك ما يسوءك . فقال : قد كان فى القوم مثله لم آمر بها ولم تسؤنى[1] ثم قال : اعل هبل[2] ! ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم « ألا تجيبونه » ؟ فقالوا : فما نقول ؟ قال : قولوا : « الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان : إن لنا العزى ولا عزى لكم ، قال : « ألا تجيبونه ؟ » قالوا : مانقول ؟ قال : قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، فأجابه عمر « لا سواء . قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار » .. وانصرف الفريقان .

تعقيب :

● والحق أن المسلمين لم ينهزموا فى هذه المعركة ، وإن كانوا لم يحققوا النصر الحاسم الذى كانوا ينشدونه ، ويكفى أنهم خرجوا من « الغزوة » بمجموعة من الدروس الحافلة ، ويروى ابن القيم فى زاد المعاد عن ابن عباس

---

(١) قامت هند وصواحبها بالتمثيل بقتلى المسلمين ، ومن ذلك أن هنداً بقرت بطن الحمزة رضى الله عنه ! وأخرجت كبده لتأكلها ، ولكنها لم تسغها فلفظتها ! !

(٢) هبل : صنم كان لقريش فى الكعبة .

قوله[1] : « ما نصر رسول الله فى موطن نصره يوم أحد » فأنكر عليه ذلك ـ فقال : بينى وبين من أنكر كتاب الله ، إن الله يقول : (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه) .

وقد ذكر الله الحكمة فيما جرى يوم أحد كما يلى :

أولا : تمحيص أوليائه من ذنوبهم وعيوبهم ، ومحق أعدائه بكفرهم وعتوهم .

(٣ : ١٤١ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) .

ثانياً : تساوى المؤمنين والكافرين فى القرح والألم وتباينهم فى الرجاء والثواب .

(٣ : ١٤٠ إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله) (٤ : ١٠٤ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون) .

ثالثاً : تداول أيام هذه الحياة بين الناس ؛ مؤمنين وكافرين ، بخلاف الآخرة ، فإن عزها ورجاءها ونصرها خالص للمؤمنين .

رابعاً : تمييز المؤمنين من المنافقين ، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة . بعد أن كانوا معلومين فى الغيب ، وذلك العلم الغيبى لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ؛ وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً فى الحس (٣ : ١٦٦ ، ١٦٧ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ..) .

---

(١) رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن ذكوان — وراجع زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم جـ ٢ ص ٢٣٨ .

خامساً : اتخاذه شهداء من المؤمنين ؛ فإنه ـ سبحانه ـ يحب الشهداء من عباده ، وقد أعد لهم من المنازل أعلاها وأفضلها وأكرمها : (٣ : ١٤٠ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء) .

سادساً : تعريف المؤمنين أن الجنة لا تنال إلا بالجهاد : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) .

سابعاً : تحبيبهم فى الموت فى سبيله : (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) قال ابن عباس : « لما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة : رغبوا فى الشهادة ؛ فتمنوا قتالا يستشهدون فيه فيلحقون بإخوانهم ، فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم » .

ثامناً : التعريف بالمصائب وأنها من النفس : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم : أنى هذا ؟ قل : هو من عند أنفسكم) ومثله ما جاء فى السور المكية كقوله : (٤٢ : ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير) .

تاسعاً : تعزية الله لنبيه وأوليائه فى قتلاهم أحسن تعزية وألطفها : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

عاشراً : تسلية المؤمنين ، وتعريفهم بالنصر الأكبر ، والفوز العظيم ، وهو إرسال الرسول لهم ، وإنزال الكتاب عليهم ، وهدايتهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم (٣ : ١٦٤ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من

أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين)

• تلك بعض المعانى البارزة فى غزوة أحد ، وما أكثر المعانى والحكم والدروس التى أبرزتها هذه الغزوة ، مما لو أحسن المسلمون فهمه واستيعابه واتباعه لكان لهم اليوم شأن أى شأن ، ومكان أى مكان .

المنافقون فى غزوة أحد :

• كانت « غزوة أحد » أولى الغزوات التى كشفت عن المنافقين ، وفضحت كثيراً من مكائدهم ونواياهم ، وقد ذكر الله تعالى فى كتابه الكريم ، أن من حكمته فى هذه الغزوة التمييز بين الطيب والخبيث : (٣ : ١٧٩ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم)

• ولقد كان المنافقون مختلطين بالمؤمنين اختلاطاً شديداً فى شتى القبائل ، فاقتضت حكمة الله وسنته أن يرشد المسلمين إلى الأسلوب الذى يتعرفون به على المنافقين ، وهو دراسة أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم ، لا الاطلاع على الغيب ! ! ، وقراءة مخبوءات النفوس ، ومكنونات الصدور ، ولهذا كان يوم أحد يوم تمحيص واختبار وبلاء ، يوم فيصل وتفرقة بين حزب الله وحزب الشيطان ! !

• لقد كان المنافقون قبل « يوم أحد » يظهرون فرادى ، أما فى يوم أحد فقد ظهروا فى شكل جماعى قوامه ثلاثمائة ! ! انحازوا إلى عبد الله بن أبى وتخلفوا معه عن القتال ! !

• وقد اتخذ « عبد الله بن أبى بن سلول » من استشارة النبى صلى الله

عليه وسلم له موضوعاً لإثارة النفوس ، وإهاجة المشاعر ، وراح يقول : « عصانى ، وأطاع الولدان !! »

* وقد عزَّ على الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن حرام — والد جابر رضى الله عنهما — أن يرجع هذا الحشد الضخم ، وأن يتخلفوا عن المعركة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : « ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم .. قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » ! !

ويجيب عبد الله بن أبى باسم حشود الفارِّين : « ما أرى أن يكون قتال ، ولوعلمنا أن يكون قتال لكنا معكم »

ولما يئس منهم الصحابى الجليل صاح فيهم : « أبعدكم الله ، أعداء الله ، فسيغنى الله نبيه عنكم » ونزل فى ذلك قوله تعالى: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لونعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون)

• ولقد كان لتراجع عبدالله بن أُبى بثلث الجيش أثره فى بعض القلوب ، فرأينا كيف أن طائفتين من الأنصار ، وهما بنو حارثة من الأوس ، وبنو سلمة من الخزرج لما رأوا انخزال المنافقين هموا بالانصراف ، ولكن الله سلم وعصم ، وأنزل فيهما : (٣ : ١٢٢ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون)

• وتدل آيات سورة آل عمران على أن جيش المسلمين — بعد انصراف عبدالله بن أبى بمن معه — ظل فيه بعض المنافقين : نجد ذلك صريحاً فيما نزل من الآيات على إثر مامُنِىَ به المسلمون لما خالف الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتركوا مواقفهم وانكشف الجيش ؛ فانتهز المشركون هذه الفرصة وقاموا بحركة

التفاف نشأ عنها قتل كثير من المسلمين ، فلما عادت صفوف المسلمين إلى نظامها أنزل الله النعاس على المسلمين أمَنة منه ونعمة حتى نام أكثرهم ولم يغش هذا النعاس المنافقين ، روى البخارى عن أنس أن أبا طلحة قال : « غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ويسقط وآخذه» وقال الزبير بن العوام رضى الله عنه : « لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين اشتد علينا الخوف ، وأرسل علينا النوم فما منا من أحد إلا وذقنه فى صدره ، فوالله إنى لأسمع كالحلم ، قول معتب بن قشير - والنعاس يغشانى - : « لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا » فنزل فى ذلك قوله تعالى: (٣ : ١٥٤ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمَنة نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ قل: إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون: لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا ، قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى الله مافى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور)

* وظنُّ الجاهلية الذى ظنوه ، فسره ابن القيم فى زاد المعاد[1] - بقوله : إنه هو الظن الذى لايليق بالله كظنهم أنه سبحانه لاينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وأنه يسلمه للقتل ، وأن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ، ولاحكمة له فيه ، وأنكروا أن يتم الله أمر رسوله ، ويظهره على الدين كله ، وهذا هو ظن السوء الذى ظنه المنافقون والمشركون بربهم سبحانه وتعالى ، وعذبهم به ، كما قال فى سورة الفتح : (٤٨ : ٦ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم

---

(١) حـ ٢ ص ٢٥٧ .

جهنم وساءت مصيراً) وإنما كان هذا ظن السوء وظن الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل لأنه خلاف كلمته التى سبقت لرسله : أنه ينصرهم ولايخذلهم ، ولجنده بأنهم هم الغالبون . اهـ تفسير ابن القيم (لظن الجاهلية) بتصرف واختصار

● وقد انتهز المنافقون ماجرى فى أُحد ، واعتبروها فرصة سانحة لإثارة موجة من الإرجاف والشماتة . ولعل أشد ماوصل إليه الإرجاف ما أشيع من مقتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشاع ذلك مشرك خبيث من قريش يدعى « ابن قمئة » فهب بعض المنافقين يقول « لو كان نبياً ماقتل فارجعوا إلى دينكم الأول » وقال جماعة منهم : « خذوا لنا أماناً من أبى سفيان !! »

ونزل قول الله تعالى : (٣ : ١٤٤ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين)

والمعنى : أن من كان على يقين من دينه ، وبصيرة من ربه ، لايرتد بموت الرسول أو قتله ، ولا يفتر عما كان عليه ، لأنه يجاهد لربه لا للرسول ، كأصحاب الأنبياء السالفين . وكما قال أنس بن النضر : « ياقوم إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد حى لايموت ، وماتصنعون بالحياة بعد رسول الله ، فقاتلوا على ماقاتل عليه ، وموتوا على مامات عليه ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ ثم شد بسيفه وقاتل حتى قتل (١)

وروى ابن أبى نجيح عن أبيه أن رجلا من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحّط فى دمه ، فقال له : يافلان ! أشعرت أن محمداً صلى الله

---

(١) رواه البخارى من حديث أنس بن مالك .

عليه وسلم قد قتل ؟ فقال الأنصارى : إن كان محمد قد قتل، فقد بلّغ : فقاتلوا عن دينكم !

وقال الإمام ابن القيم فى زاد المعاد[1] :«ومنها ـ أى : من الغايات الحميدة فى غزوة أُحد ـ أنها كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدى موت رسول الله صلى الله عليه وسلم فنبأهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ، ويموتوا عليه ويقتلوا ؛ فإنهم إنما يعبدون رب محمد وهو حى لايموت ، فلومات محمد أو قتل لاينبغى لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وماجاء به ، فكل نفس ذائقة الموت ، ومابعث محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ليخلد ، لاهو ولاهم ؛ بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد »

وقد ثبت فى صحيح البخارى أن أبا بكر الصديق تلا هذه الآية يوم موت النبى صلى الله عليه وسلم ـ ثم قال: « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت »

● ومن أراجيف المنافقين التى تحدثت عنها سورة آل عمران قولهم : « لو كان من قتل منكم عندنا ماقتل » بقول الله تعالى : (٣ : ١٥٥ ـ ١٥٨ يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا : لإخوانهم ، إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّى ، لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير، ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون)

---

(١) جـ ٢ ص ٢٥٣ .

وكلمة (لو) جنة يتستر وراءها المنافقون ويتعللون بها ؛ لأنهم شياطين. و (لو) تفتح عمل الشيطان ـ فهم يقولون :

(لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا)

ويقولون لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزًّى : (لو كانوا عندنا ما ماتوا وماقتلوا)

ويقولون لأشياعهم : (لو أطاعونا ماقتلوا)

ذلك شأنهم ودينهم دائمًا : (٩ : ٣٠ قاتلهم الله أنَّى يؤفكون)

فى سورة النساء

(١) نفاق التشريع :

(الآيات : ٦٠ ـ ٦٥ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ، أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً ، وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيماً ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) .

* * *

● يذكر المفسرون « أسباباً » متعددة « لنزول » هذه الآيات ، وجميع ما ذكروه يدور حول : أن « أفراداً » من المنافقين ؛ كالجلاس بن الصامت ، ومتعب بن قشير ، ورافع بن زيد ، أعرضوا عن حكم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وآثروا تحكيم غيره من الناس ، لعلمهم أن الآخرين يقبلون الرشوة ، ويبيعون « الأحكام » بالثمن !! ، أما هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد كان ـ دائماً ـ يحكم بالعدل ، ويقسم بالسّوية ؛ لا يحوله عن الحق قرابة قريب ، ولا محبة حبيب ، ولا عظمة عظيم !! فالناس ـ جميعاً ـ أمام شريعة الله ودينه سواء ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى !!

● وليس معنى تعدد أسباب النزول ؛ وهم الرواة ، أو تناقض النصوص ؛ إنما معناه أن الوقائع كانت تتعدد قبل نزول الآية ؛ وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ـ الآية أو الآيات ـ على أصحاب كل واقعة فيرون أنهم سبب نزولها .

والآيات التى بين أيدينا نزلت لتقرر « شرط الإيمان » على النحو التالى :

ـ أن المؤمنين ـ لكى يكونوا مؤمنين حقاً ، ناجين صدقاً ـ لابد أن يحكّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

ـ وأن المؤمنين ـ لكى يكونوا مؤمنين حقاً ، ناجين صدقاً ـ لابد أن يتلقوا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بالرضا القلبى ، والتسليم الظاهرى !!

ـ وأن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ـ ولو مجرد إرادة !! لن يقبل الله منهم مزاعم الإيمان ، ولا دعاوى الإسلام !!

● والطاغوت ـ الذى دمغ الله المنافقين بأنهم يريدون التحاكم إليه ـ هو مصدر الطغيان كله ، فكأن كل من يتحاكم إلى غير ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ يكون عبد الطاغوت من دون الله !! وكذلك الذى ينصب نفسه مشرعاً للناس ، وحاكماً لهم بغير ما أنزل الله ، يكون قد نصب نفسه « طاغوتاً » ووثناً !!

وقد أمرنا الله فى كثير من آيات الذكر الحكيم ؛ أن نؤمن بالله ، ونكفر بالطاغوت[1] ، يقول الله تعالى : (٢ : ٢٥٦ ، ٢٥٧ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ، الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات

---

(١) ورد لفظ الطاغوت فى القرآن الكريم ثمانى مرات !

إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

وأنماط « الطواغيت » التى يدين لها الناس ، ويعبدونها من دون الله ؛ كثيرة ومتباينة ! وتكاد تكون منحصرة فى كل مايصرف عن الله ، وتوحيده ، وآياته ، وصفاته ، وتشريعه

• وتبدأ الآيات بقوله تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد أمروا أن يكفروا به)

وتأمل كلمة (يزعمون) إنها المطية الذلول التى يمتطيها الكذابون إلى مآربهم وأغراضهم ، يقول الراغب : الزعم : حكاية قول يكون مظنة الكذب ؛ ولهذا جاء القرآن الكريم بذمه وذم القائلين به فى مواضع شتى[1] : كقوله تعالى : (٦٤ : ٧ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل : بلى وربى لتبعثن) (٦ : ٩٤ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون) (١٧ : ٥٦ قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) (١٨ : ٤٨ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً)

فالقرآن الكريم يدفع ادعاء المنافقين للايمان بما أنزل إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أنزل من قبله ؛ بأنه مجرد زعم ، لاحقيقة له ولا وجود ! .

---

(١) تكرر هذا اللفظ فى القرآن الكريم خمس عشرة مرة !

• إنهم اتبعوا الشيطان فابتدع لهم كل زيف وباطل وهجروا « كتاب الله » وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هجراً غير جميل ، واستبدلوا بها كتبا أخرى ؛ كالحة الوجه ، سيئة الغرض ، هازلة المعنى ، تافهة المبنى ، رديئة الفكرة ، متناقضة الرأى ! !

• لقد شرد المنافقون عن الطريق ، وضلُّوا عن سواء السبيل ، وعميت عليهم الأنباء ، فما عادوا يستجيبون لحق ، ولا ينقادون لهدى ، ولا يتعاونون على خير ، ولا يأتمرون بمعروف !

صموا آذانهم عن نداء السماء ، وصدُّوا قلوبهم عن دعوة الله (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً)

• حتى إذا أحاطت بهم خطاياهم ، وجرفهم الطوفان العاتى ، وأدركهم الغرق ؛ هرعوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعهم رصيدهم الذى لا ينفد من الأيمان الكاذبة (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً)

وتأمل كلمتى (إحساناً) و (توفيقاً) إنهم يحلفون - كاذبين غاشّين - أنهم ما قصدوا بالتحاكم إلى الطاغوت ، والنكوص إلى فوضى « الجاهلية التشريعية » ؛ إلا رغبة فى « الإحسان » و « التوفيق » ؟ ! !

ألا ترى معى أن لغة المنافقين « القدامى » ، هى هى لغة المنافقين « المحدثين » ؟ ؟

إنها - دائماً - لغة أعداء الله ، وأعداء شريعته ! ! وإنه الدفاع المشبوه الذى يطلقونه كل يوم ؛ ليبرروا به سلوكهم المرذول

إنهم يقولون إننا « نستورد » الشرائع ، و « نتسول » القوانين ؛ لكى نتقى الشبهات والإشكالات والمتاعب التى تسببها لنا « شريعة القرآن » و « سنة النبى العربى » ! !

ويقولون : إننا نريد « التوفيق » بين العناصر المختلفة ، والاتجاهات المختلفة ، والعقائد المختلفة

ولو أننى رحت أختصر مايقوله « المنافقون المحدثون » عن « التشريع الإسلامى » لما وجدت أكمل ولاأشمل ، ولا أدق ولا أعمق ، من قوله تعالى : (يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً) .

• ثم تقول الآيات البينات : (أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم) وهكذا تمسك الآية بخناقهم وهم فى حالة تلبس بالتلصص والتربص والخداع ، والتمويه !!

و .. ثم يعلم الله نبيه كيف يواجه هذا النفاق التشريعى » :

• فأعرض عنهم ! ! .. أو ليس هو صلى الله عليه وسلم مأموراً بالإعراض عن الجاهلين ؟

• وعظهم ! ! . . لعل قلوبهم أن تخشع لذكر الله ومانزل من الحق!!

• وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً .. ! تغزو به أفكارهم السوداء وحججهم الواهية ! !

* * *

• وتحدد الآية (٦٤) مهمة الرسول ، فتقول : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) .

فالرسول ليس مجرد « خطيب » يلقى خطبة عصماء ثم يمضى . . ولا يهمه ـ بعد ذلك ـ أن يذهب كلامه فى الهواء ، أو أن يستقر فى القلوب ! !

والرسول ليس مجرد « موفد » من قبل الله للإثارة الوجدانية ، وتنظيم الشعائر التعبدية ! !

إنما أرسل الله الرسول ليطاع ـ بإذنه ، وفى حدود شرعه ـ لتحقيق منهج الدين ! !

ومنهج الدين، هو منهج الحياة بكل مافيها من واقعية ومثالية ،وتشكيلات وتنظيمات ، وأوضاع وقيم ، وأخلاق وآداب ، وشعائر ومشاعر !!

إن مهمة الرسل ـ باختصار شديد مفيد ـ هى : « إقامة منهج معيَّن للحياة ، يتغلغل فى واقع الحياة ، بأمر الله واهب الحياة » !

● والذين أساءوا فهم هذه الحقيقة ـ عن قصد ، أو عن غير قصد ـ عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يتوبوا إلى ربهم ، ويستغفروه ، وأن يصححوا مفاهيمهم الخاطئة ، وأن يقوِّموا سلوكهم المعوج !

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك ، فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيما) .

إن المنافقين ـ هجروا حكم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ علوًّا وعتواً ، وغروراً ونفوراً .. ولذلك كان من كمال استغفارهم أن يجيئوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ متواضعين ، معترفين بقصورهم وتقصيرهم ، محكِّمين له صلى الله عليه وسلم ، طالبين منه أن يمد يد الضراعة إلى ربه لعله أن يتوب عليهم ـ ويغفر لهم !!

ولكن : ترى هل استجاب المنافقون ؟

لا . . لقد جرفهم الكبر الآبق فى تياره ، وابتلعهم الغرور الخانق إلى قراره ، (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوَّوْا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) .

فماذا كان حالهم ، وكيف كان مآلهم ؟

كان كما يقول الله لنبيه : (سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) .

* * *

• ويقسم الله تعالى لنبيه أن الإيمان لا يكون صحيحاً متقبلا لديه إلا إذا استجمع ثلاثة شروط :

• أن يحكِّم المؤمنون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القضايا التى يختلفون حولها .

• (ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً) مما قضى به صلى الله عليه وسلم .

والحرج : الضيق ، والقضاء : الحكم .

ومعنى هذا أن يذعنوا إذعاناً قلبياً لما قضى به الرسول صلى الله عليه وسلم !

• (ويسلِّموا تسليما) أى : يذعنون إذعاناً ظاهرياً عملياً ، فكأن الآية تطالب المؤمنين بأن « يحكِّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم» وبأن يتقبلوا حكمه ظاهرياً وباطنياً

وتأمل كيف صدرت الآية بالقسم (فلا وربك لا يؤمنون) .

وتأمل كيف كان القسم بهذا اللفظ (ربك) تكريماً للنبى صلى الله عليه وسلم .

وتأمل كيف جاء القسم بين نفيين (لا) وربك (لا) يؤمنون .

* * *

هذا ماقاله الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمنافقين الأقدمين . .

وهو ـ أيضاً ـ مايقوله سبحانه وتعالى للمنافقين المحدثين . .

(ب) الهاربون من العدالة :

(٤ : ١٠٥ ـ ١١٥ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوّاناً أثيما ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ؛ إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا .

ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما .

ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليماً حكيما .

ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً .

ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما .

لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما . ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

* * *

● إننى أهدى هذه « الوثيقة » إلى العالم كله . . بكل نظمه .. ومنظماته .. ومبادئه .. وأفكاره .. وتراثه .. وأمجاده .. وأممه .. وشعوبه !!

إنها « واقعة » واحدة من وقائع « القرآن الكريم » !!

وإنها « حادثة » واحدة من حوادث « السيرة العطرة » !!

والحادث الذى تدور حوله هذه الآيات ليس حادثاً عابراً : إنه «حادث» يحسن الوقوف عنده ، ودراسته ، وتأمله !

وهو « أمارة » على أن القرآن كتاب الله وتشريعه . . ! وأنه فوق ماتعارف عليه البشر من نظم وشرائع وقوانين ! !

إنه كتاب « رفع » أتباعه إلى القمة ، و « دفعهم » إلى الأمام !

وتعاليم هذا الكتاب : تأخذ « بيد » الإنسان و « ناصيته » إلى الحرية . والكرامة . والرخاء . . والسلام ، !

إنه كتاب « العدالة » و « المساواة » و « الحب » .

إنه الكتاب الذى أقر « حقوق الإنسان » . . قولا وعملا ! ! وحرره من الأنانية . . والكهنوت . . والاستعباد . . ؟

و « عدالة القرآن » عدالة تسمو عن الغرض والمرض والهوى ! !

هذا ما يقرره «النص» الذى بين أيدينا . . أو إن شئت فقل : «الوثيقة» التى نُصِرُّ على إهدائها للعالم كله « بأممه المتحدة » وغير المتحدة ! !

و « النص القرآنى » يجند نفسه للدفاع عن . . يهودى !!

و « اليهودى » معروف بموقفه الكنود الحسود الجبان . . من القرآن . . ومن رسول القرآن ؟ ؟!

ومع هذا كله . . وبرغم هذا كله . . فإن القرآن يعلن موقفه الصريح إلى جوار الحق . . ولو كان ذلك الحق . . فى يد يهودى ؟؟!

كذلك فإن القرآن يصر على مواجهة « الباطل » . . مهما تستّر فى ظلاله . . أو لجأ إليه ؟؟!

وإليك « القصة » كما رواها « نقلة » الدين ، وأمناء السنة ، « ورواة » السيرة :

• روى أبو عيسى الترمذى فى (جامعه) فى كتاب التفسير ، عن قتادة بن النعمان رضى الله عنه ، قال : كان أهل بيت منا يقال لهم : بنو أبيرق : بشر ، وبشير ، ومبشر . وكان بشير رجلا منافقاً ، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ينحله إلى بعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا ، أو قال فلان كذا . فإذا سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا : والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث ، فقال :

أو كلما قال الرجال قصيدة

غضبوا ، وقالوا : ابن الأبيرق قالها !

قال : وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة فى الجاهلية والإسلام .

وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة : التمر والشعير . وكان الرجل إذا كان له يسار ، فقدمت ضافطة من الشام بالدرمك[1] ابتاع الرجل منها فخص به نفسه ؛ فأما العيال ، فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمى رفاعة بن زيد حملا من الدرمك فجعله فى مشربة له[2] وفى المشربة سلاح له : درعان وسيفاهما وما يصلحهما .

فَعُدِيَ عليه من تحت الليل ، فنقبت المشربة ، وأخذ الطعام والسلاح .

فلما أصبح أتانى عمى رفاعة فقال : يا ابن أخى ! تعلم أنه قد عدى علينا فى

---

(١) الضافطة : كانوا قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما ، ثم قالوا للذى يجلب الميرة والمتاع إلى المدن ، والمكارى الذى يكرى للأحمال : الضافطة والضفاط .

والدرمك : الدقيق النقى الحوارى .

(٢) المشربة (بفتح الميم وسكون الشين وفتح الراء أو ضمها) هى الغرفة أو العلية ، أو الصفة بين يدى الغرفة ، والمشارب : العلالى .

ليلتنا هذه ، فنقبت مشربتنا ، فذهب بسلاحنا وطعامنا .

قال : فتحسست فى الدار[1] وسألنا ، فقيل لنا : قد رأينا بنى أبيرق استوقدوا فى هذه الليلة ، ولا نرى ، فيما نراه ، إلا على بعض طعامكم .

قال : وقد كان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل فى الدار : والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل ، رجلا منا له صلاح وإسلام ، فلما سمع بذلك لبيد اخترط سيفه (سلّه من غمده) ثم أتى بنى أبيرق فقال : والله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبيّننّ السرقة ، قالوا : إليك عنا أيها الرجل : فوالله ما أنت بصاحبها . فسألنا فى الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها !!

فقال عمى : يا ابن أخى ! لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقلت : يارسول الله . إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمى رفاعة فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه ، فليردوا علينا سلاحنا ، وأما الطعام فلاحاجة لنا فيه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنظر فى ذلك .

فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة فكلموه فى ذلك . واجتمع إليه ناس من أهل الدار ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله ! إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا ، أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة فى غير بينة ولا ثبت[2] .

---

(١) الدار هنا : المحلة التى تنزلها القبيلة ، أو البطن منها . ويعنى بها القبيلة أو البطن كما جاء فى الحديث : « ألا أنبئكم بخير دور الأنصار ! دور بنى النجار ، ثم دور بنى عبد الأشهل ، وفى كل دور الأنصار خير » يعنى : القبيلة المجتمعة فى محلة سكنها .

(٢) الثبت — بفتحتين — الحجة والبينة والبرهان .

قال قتادة : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلّمته . فقال : عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت؟ قال : فرجعت . ولوددت أنى أخرجت من بعض مالى ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك .

فأتيت عمى رفاعة ، فقال : يا ابن أخى ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : الله المستعان .

فلم نلبث أن نزل القرآن (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) يعنى : بنى أبيرق (واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما ، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) أى : بنى أبيرق (إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما ، يستخفون من الناس) إلى قوله : (ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) أى : إنهم إن يستغفروا الله يغفر لهم (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ، ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبينا) قولهم للبيد (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) يعنى : أسيراً وأصحابه (وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) إلى قوله (فسوف نؤتيه أجراً عظيما) .

فلما نزل القرآن : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاح فرده إلى رفاعة .

قال قتادة : فلما أتيت عمى بالسلاح ، وكان شيخاً قد عسا[1] ، فى الجاهلية وكنت أرى إيمانه مدخولا[2] ، فلما أتيته بالسلاح قال : يا ابن أخى ! هو

---

(١) عسا فى الجاهلية — أى : كبر وأسن .
(٢) مدخولا — أى : مغشوشاً .

فى سبيل الله ، قال : فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً .

فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين . فنزل على سلافة ابنة سعد بن شهيد فأنزل الله فيه : (ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين) إلى قوله : (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً) .

فلما نزل على سلافة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر ، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت فرمت به فى الأبطح[1] ثم قالت : أهديت إلىّ شعر حسان ، ما كنت تأتينى بخير ! !

● وأخرج ابن سعد فى الطبقات بسنده عن محمود بن لبيد قال : عدا بشير بن الحارث على علية رفاعة بن زيد عم قتادة بن النعمان فنقبها من ظهرها وأخذ طعاماً له ودرعين بأداتهما . فأتى قتادة النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فدعا بشيراً فسأله فأنكر ، ورمى بذلك لبيد بن سهل رجلا من أهل الدار ذا حسب ونسب ، فنزل القرآن بتكذيب بشير وبراءة لبيد .

● وروى ابن جرير عن قتادة « إن هؤلاء الآيات أنزلت فى شأن طعمة بن أبيرق وفيما همّ به نبى الله صلى الله عليه وسلم من عذره وبين الله شأن طعمة بن أبيرق ، ووعظ نبيه وحذّره أن يكون للخائنين خصيما . وكان طعمة ابن أبيرق رجلا من الأنصار ثم أحد بنى ظفر ؛ سرق درعاً لعمه كان وديعة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له : زيد بن السمير فجاء اليهودى إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم يهتف ، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم ليعذروا صاحبهم ، وكان نبى الله عليه السلام قد همّ

---

(١) الأبطح : هو أبطح مكة أو بطحاؤها ، وهو : مسيل واديها .

بعذره حتى أنزل الله فى شأنه ما أنزل ، فقال : (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) الخ . وكان طعمة قذف بها بريئاً فلما بيَّن الله شأن طعمة نافق ، ولحق المشركين بمكة فأنزل الله فيه (ومن يشاقق الرسول ... الآية) .

● وروى عن ابن زيد أن رجلا سرق درعا من حديد وطرحها على يهودى فقال اليهودى : والله ما سرقتها يا أبا القاسم ولكن طرحت علىَّ . وكان للرجل الذى سرق جيران يبرءونه ويطرحونه على اليهودى ، ويقولون : يارسول الله ، هذا اليهودى الخبيث يكفر بالله وبما جئت به !! قال : حتى مال النبى صلى الله عليه وسلم ببعض القول فعاتبه الله عز وجل فى ذلك فقال - (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) الآيات . ثم قال فى الرجل . ويقال : هو طعمة بن أبيرق .

● وروى عن السدى أنها نزلت فى طعمة بن أبيرق ، استودعه رجل من اليهود درعاً فخانه فيها وأخفاها فى دار أبى سليك الأنصارى ، وأهان طعمة وأناس من قومه اليهودى لما جاء يطلب درعه ، وجادلت الأنصار عن طعمة ، وطلبوا من النبى أن يجادل عنه ... الخ .

● يقول رشيد رضا[1] : « وقد اختار أكثر المفسرين أن الخائن هو طعمة ، وأن اليهودى هو الذى كان صاحب الحق » .

* * *

تعليقات :

الأول : يدل قوله تعالى : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس) على أن القرآن الكريم كتاب دنيا ودين ، كتاب حكم وعبادة ،

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ٣٩٢ .

كتاب أخلاق ومعاملات . . وأن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل ليبشر وينذر ويهدى ويحكم .

الثانى : ويدل قوله تعالى : (بما أراك الله) على أن الرسول لا يحكم بهواه ، ولكن بما علمه الله وأراه . وإنما أطلق الله تعالى على (التعليم) (رؤية) لأن العلم اليقينى المبرأ عن الريب يكون جارياً مجرى الرؤية فى القوة والظهور .

الثالث : ليس لأحد ـ غير الرسول صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول : حكمت بما أرانى الله ! ! فقد روى ابن عبد البر والبيهقى فى (المدخل) عن عمر رضى الله عنه قال : لا يقولن أحدكم قضيت بما أرانى الله ؛ فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكن ليجتهد رأيه ؛ لأن الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً ؛ لأن الله كان يريه إياه ، وهو منا الظن والتكلف ! !

الرابع : قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (ولا تكن للخائنين خصيما) (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) وقوله للذين جادلوا عن طعمة ابن أبيرق : (ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا) فيه توجيه (للمحامين) الذين يتصدون للدفاع عن المتهمين ! ! إن عليهم أن يتأكدوا من « براءة » من يدافعون عنه . . . حتى لا يكون دفاعهم سبباً فى إدانة برىء ، وبراءة مسىء ! !

الخامس : وترشدنا الآيات إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر ، وأنه لا يعلم الغيب إلا فى حدود تعليم الله له . ثبت فى الصحيحين عن أم سلمة رضى الله

عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته ، فخرج إليهم ، فقال : ألا إنما أنا بشر ، وإنما أقضى بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ؛ فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليحملها ، أو ليذرها .

ورواه الإمام أحمد عنها ـ أيضاً ـ بلفظ : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى مواريث بينهما درست ليس بينهما بينة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم تختصمون إلىّ ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فإنى أقضى بينكم على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها إسطاماً[1] فى عنقه يوم القيامة ، فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقى لأخى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إذ قلتما ، فاذهبا ، واقتسما ، ثم توخيا الحق بينكما ، ثم استهما ، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه » .

السادس : دعا الله سبحانه وتعالى طعمة بن أبيرق إلى التوبة والاستغفار ولكنه أبى ، يقول الله تعالى : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما).

فكانت عاقبة أمره خسراً ، يقول الله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

وهكذا كل من آثر الإصرار ، ورفض الاستغفار .

السابع : قررت الآيات « قواعد الجزاء فى الإسلام » على هذا النحو :

---

(١) الإسطام : الحديدة التى تحرك بها النار وتسعر .

• فتح باب التوبة لكل مسىء أو ظالم : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما) .

• إلزام كل إنسان بنتائج عمله : (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه) .

• تضاعف التبعة على من يرتكب إثماً ثم يرمى به بريئاً : (ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) .

* * *

وبعد : فإننى أضع هذه « الوثيقة القرآنية » بين يدى العالم « الظمآن » إلى المعرفة والخير والرشاد .. التائه فى خِضَمِّ المبادىء والفلسفات ..

إننى أقول للعالم كله « بأممه المتحدة » وغير المتحدة ..

(٦٩ : ١٩ هاؤم اقرءوا كتابيه) .

(حـ) الباحثون عن « العزة » :

(٤ : ١٣٨ - ١٤٧ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ، فإن العزة لله جميعاً ، وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ؛ إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ، ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ؛ يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ؛ مذبذبين بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ؟

إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ؛ إلا الذين تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله ؛ فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما ، ما يفعل الله بعذابكم - إن شكرتم وآمنتم ، وكان الله شاكراً عليما) .

* * *

● النفاق « رخاوة » فى الطبع ، و « قساوة » فى القلب ، و « انحراف » فى الفطرة ، و « احتراف » فى المبدأ ، و « إسراف » فى الخطيئة ! !

و « المنافق » لا يقوى على « تحديد » موقفه إزاء الحق والباطل . . فهو

ـ دائماً ـ « مذبذب » بين الصفين ، حائر بين الهدفين ! .. لا إلى هؤلاء .. ولا إلى هؤلاء ! !

وهو متخاذل . « مسلوب الإرادة » أمام أشباح « المخاوف » .. ورؤى « المطامع » فهو دائم الرهبة والرغبة .. والهرب والتحفز .. والإدبار والإقبال .. والأنين والحنين ! !

إن « مخاوفه » و « أطماعه » لا تكاد تنتهى ..

ومصادر هذه « المخاوف » و « الأطماع » لا تكاد تحصى !!

إنه « يخاف » كل الناس .. وكل الأشياء ! !

و « يطمع » فى كل الناس .. وفى كل الأشياء !!

وهذا سر شقائه وبلائه ، وكنوده وجحوده ! !

● وتأخذ هذه الآيات بأيدينا ... فتضعها على الغرائز الكامنة فى قرارة نفس المنافق ، فإذا بها أشياء تلمس وتحس ، وترى وتحس ! !

وترينا الآيات ـ فيما ترينا ـ .. كيف أن المنافق تابع لكل قاعق ، باحث عن أى نفع ، راغب فى أى كسب ، خائف من أى شىء !!

فهو يبحث عن العزة ... ويهزأ بالحق .. ويتربص بالمؤمنين .. ويخادع الله .. !

وهو .. إن صلى صلى رياء .. وإن ذكر الله ذكره قليلا .. وإن عبد الله فعبادته بلا روح !

وهو ... متأرجح المشاعر ، حائر النظرات ، عاثر الخطوات ، « مذبذب » الوجدان ! !

● وتبدأ الآيات فى عرض هذه الملامح النفسية « القلقة » ، بقوله تعالى :

(بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً) .. وكلمة « بشر » — فى حد ذاتها — عذاب أليم عظيم مقيم : إنها تهكم ساخر تنقطع له نياط القلب !! إنها كلمة تحمل اليأس كله .. والحزى كله .. والهم كله .. وتَصَوَّرْ إذا كان الأمر الذى «تزف» إليهم به البشائر هو العذاب الأليم .. فما هو الأمر الذى يساءون به !! وماذا وراء العذاب الأليم من عذاب ؟؟ ..

• (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) ويتخذ هذا « الولاء » أشكالا شتى ، وصوراً متباينة ؛ فهو ولاء فكرى ، ودينى ، وعاطفى ، وحضارى ، وسياسى !! وما أكثر « الولاءات » التى يبذلها المنافقون للكافرين ..

• وتتساءل الآيات : (أيبتغون عندهم العزة) والمنصب والجاه ؟

وتقرر الآيات : (فإن العزة لله جميعاً) . ألا يقرأ ويفهم ويعى .. أولئك الذين أقاموا « عروشهم » على الحاجم والأشلاء !! ألا يسمع .. أولئك الباحثون عن « العزة » و « السعادة » و « المعالى » و « الجلالة » .. ! أن القوة لله جميعاً .. وأن العزة لله جميعاً ؟

ألا ليتهم يعقلون .. ولكن لهم قلوب لا يفقهون بها !

ألا ليتهم يسمعون .. ولكن لهم آذان لا يسمعون بها !

ألا ليتهم يبصرون .. ولكن لهم عيون لا يبصرون بها !!

ألا ليتنى .. أستطيع أن أحول هذه الكلمات إلى «سياط» عذاب تلهب ظهور المتآمرين والخائنين !!

ألا ليتنى أستطيع أن أحيل هذه الحروف إلى « قذائف موجهة» تعصف بهم ، وتقصف أوكارهم !!

• ومن «الباحثين عن العزة» أولئك المتفاخرون بالمجد الجاهلى .. وبالتراث الجاهلى .. أولئك الذين يقيمون « الفرعونية » فى وجة « الإسلامية » !

فقد روى الإمام أحمد عن أبى ريحانة أن النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً ، فهو عاشرهم فى النار»!

• (وقد نزل عليكم فى الكتاب) — والمنزل فى الكتاب هو قوله تعالى فى سورة الأنعام المكية : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) —

• (أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) إن البدء الحقيقى للنفاق يكون « بالإغضاء » عن الهازلين بآيات الله ودينه .. المحتجين « بحرية الرأى » ونبذ «التعصب الأعمى » ! ومن العجيب : أن شعار « حرية الرأى » لا يرفع إلا فى وجه « المتحدث الإسلامى» فقط ! ؟ أما المتحدثون من كل « ملة » و « نحلة » فهم لا يخضعون لهذا الشعار ولا يلتزمون به ؟؟

إن «الإغضاء» عن الهازلين .. هو « الخطوة الأولى » فى سبيل النفاق .. وبعدها « تهمد » العقيدة ثم « تخمد » ثم « يمرض » القلب ، ثم « يموت » موتاً أبدياً ؟؟

إن على « المؤمن الصادق » أن يتبع مع المستهزئين أحد أسلوبين لاثالث لهما : • فإما أن يدافع عن دينه بيده أو بلسانه • وإما أن يهجر مجالس الكفر والهجر ؟؟

أما إذا استخذى عن اتباع أحد الأسلوبين ، فإن الآية تقول — له ولأمثاله — بوضوح :

(إنكم إذاً مثلهم) .

وتقول : — له ولأمثاله — (إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً) ؟ فكما جمعهم « ناد » واحد .. تجمعهم « نار » واحدة ؟؟

• (الذى يتربصون بكم ، فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ، وإن كان الكافرين نصيب ، قالوا : ألم نستحوذ عليكم ، ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة) وهم بهذا التصرف يحاولون أن يمسكوا « بالعصا من الوسط » ؟؟ فهم يلبسون (وجهين) ، ويعيشون (بطريقتين) ؟؟ ويتعاملون (بأسلوبين) ؟؟ ولكن : هل يقدرون على خداع المؤمنين (بأثوابهم التنكرية) و (أشيائهم المستعارة) و (انفعالاتهم المزورة):.

الجواب : لا .. ولا .. ولا .. ثلاث مرات ؟؟

• (ولن يجعل الله الكافرين على المؤمنين سبيلا) تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولا تحويلا ؟؟

• ونأمل تعبير الآية عن انتصار المؤمنين (بالفتح) وتعبيرها عن انتصار الكافرين (بالنصيب) .

لتعلم أن العاقبة للتقوى ، وأن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا !! وإذا رأيت انتصار الكافرين على المؤمنين ، فما ذاك إلا لأن المؤمنين تخلوا عن إيمانهم وقرآنهم !!

• (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ومهما لبسوا من أثواب الرياء فسيظلون عرايا مفضوحين !!

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عار !!

• (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون

الله إلا قليلا) قال ابن كثير : هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ـ وهى الصلاة . إذا قاموا إليها ؛ قاموا : وهم كسالى عنها ؛ لأنهم لانيّة لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولاخشية ، ولا يعقلون معناها ، كما روى ابن مردويه عن عطاء عن ابن عباس، قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه ، عظيم الرغبة ، شديد الفرح ، فإنه يناجى الله ، وأن الله تجاهه ، يغفر له ، ويجيبه إذا دعاه .

● لقد وصفت الآية « ظواهر » المنافقين فى الصلاة فقالت : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) .

ووصفت « بواطنهم » فيها ، فقالت : (يراءون الناس) ! !

● كانت هذه هى صفات المنافقين القدامى عند الصلاة . . أما المنافقون المحدثون . . فإنهم ماعادوا يقومون إلى الصلاة ! ! وما عادوا يراءون أحداً ؛ لأنهم ماعادوا يخافون أحداً ! !

● ثم تقول الآيات ـ فى وصف المنافقين ـ : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء . . ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) ! !

وكلمة (مذبذبين) كلمة لها رنين خاص . . إنها تدل على الحيرة والتردد والاضطراب ، يقول ابن جنى : المذبذب : المهتز القلق الذى لا يثبت ولا يتمهل ! !

* * *

● تقرر الآيات مصير المنافقين ، وهو مصير بشع ، تنخلع لهوله القلوب (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً) لقد عاشوا فى الدرك الأسفل من العقيدة والخلق والسلوك ! ! فكان جزاؤهم « الدرك الأسفل من النار » جزاء وفاقاً ! !

• ولـكن . . تُرى . . هل أغلق باب التوبة فى وجه هؤلاء ؟ ! !

لا . . فإن يد الله الرحمن الرحيم ، تمتد للتائبين، وتتقبَّل استغفار المستغفرين وتُقيل عثرات الساقطين !

تقول الآيات : (إلا الذين تابوا ، وأصلحوا ، واعتصموا بالله ، وأخلصوا دينهم لله) .

وانظر إلى الشروط الأربعة التى حددتها الآية :

١ — التوبة .

٢ — الإصلاح .

٣ — الاعتصام بالله .

٤ — إخلاص الدين له .

ولو قرأنا الـكثير من الآيات التى تحدثت عن التوبة ؛ فإننا نجدها — غالباً — تشترط • التوبة • والإصلاح . . فقط ! !

أما — هنا — فالداء خطير ! ! وهو فى حاجة إلى علاج كثير ! !

إن المنافقين اعتصموا بغير الله وطلبوا من الناس العزة ! !

وإن المنافقين استهزءوا وسخروا بالمؤمنين ؛ وما كانوا يرجون لله وقاراً ! !

ولهذا طالبتهم الآية بأن . . يعتصموا بالله ! !

وبأن . . يخلصوا دينهم لله ! !

ثم تعطى الآية التائبين أجراً عظيما ، وجزاء كريماً إنهم تنقلهم من « الدرك الأسفل » إلى « الدرجات العلا » أو كما قال الله تعالى : (فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما) .

(مايفعل الله بعذابكم) أيشفى به غيظاً ؟ أيدرك به ثأراً ؟ أيستجلب به

نفعاً ؟ أيستدفع به ضرراً ؟ . . كلا ! ! فهو الغنى وأنتم الفقراء ، وهو العزيز وأنتم الأذلاء ! ! وهو القوى وأنتم الضعفاء ! !

• وتأمل قوله : (إن شكرتم وآمنتم) إنه ـ سبحانه ـ قدم الشكر على الإيمان ليدل على أن الإيمان لا يستقر ولا يستمر إلا إذا سبقته مشاعر المعرفة والحب لخالق الكون ومدبره ! !

والشكر ، هو : الإيمان . . ألا ترى القرآن يقابل بينه وبين الكفر : (٣٩ : ٧ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر : وإن تشكروا يرضه لكم) .

• وتأمل قوله تعالى : (وكان الله شاكراً عليما)

أرأيت كيف يشكر الخلاق الرزاق ؟ !

أفلا يشكر المخلوق المرزوق ؟ !

فى سورة التوبة

(٩ : ٦٤ يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم . . قل : استهزئوا ، إن الله مخرج ما تحذرون)

آخر غزوة وآخر سورة :

● قالوا : إن لسورة التوبة عدة أسماء[1] ـ منها :

براءة : لقوله تعالى فى أولها : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) .

التوبة : لتكرر لفظ التوبة فيها : (٩ : ٣ فإن تبتم فهو خير لكم)(٩ : ٥، ١١ فإن تابوا وأقاموا الصلاة) (٩ : ٢٧ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) (٩ : ٧٤ فإن يتوبوا يك خيراً لهم) (٩ : ١٠٢ عسى الله أن يتوب عليهم) (٩ : ١١٧ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) (٩ : ١٠٤ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) (٩ : ١١٢ التائبون العابدون . .)

الفاضحة : فقد أخرج البخارى عن سعيد بن جبير، قال قلت لابن عباس: سورة التوبة ، قال : التوبة هى الفاضحة ، مازالت تنزل : ومنهم . . ومنهم .. حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها .

سورة العذاب : رواه الحاكم عن حذيفة ، وذلك لتكرره فيها .

---

(١) الصحيح أن اسم السورة « التوبة » أو « براءة » أما ماعداها نعتات لا أسماء .

المقشقشة : رواه أبو الشيخ عن ابن عمر ، والقشقشة معناها : التبرئة ، وهى مبرئة من النفاق .

المنقرة : أخرجه أبو الشيخ عن عبيد بن عمير ؛ لأنها تنقرت عما فى قلوب المنافقين ، أى : بحثت عنه .

البحوث : ـ صيغة مبالغة من البحث ـ رواه الحاكم عن المقداد .

الحافرة : ذكره ابن فورس ؛ لأنها حفرت عن قلوب المنافقين ؛ أى بحثت عنها .

المثيرة : رواه ابن أبى حاتم عن قتادة ؛ لأنها أثارت مثالبهم وعوراتهم ؛ أى : أخرجتها من الخفاء إلى الظهور .

ومما قاله رواة التفسير المأثور عن أسمائها :

المبعثرة ؛ لأنها بعثرت أسرارهم ، أى : أظهرتها[1] .

المدمدمة ؛ أى : المهلكة لهم .

المخزية ؛ أى : الفاضحة لهم ، الناشرة لمثالبهم .

المنكلة ؛ أى : المعاقبة لهم .

المشردة ؛ أى : الطاردة لهم ، والمفرقة لجمعهم .

وبعد مراجعة آيات السورة مراجعة موضوعية ، والوقوف على ماجاء فى كتب التفسير المأثور عن أسباب النزول ، ودراسة ما رواه كتّاب السيرة النبوية وقالوه : يتبين لنا أن السورة بجملتها نزلت فى العام التاسع من الهجرة ولكنها لم تنزل دفعة واحدة .

---

(١) جاء فى الروض الأنف للسهيلى جـ ٧ ص ٣٥٢ : « وكانت براءة تسمى فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وبعده : المبعثرة ، لما كشفت من سرائر الناس » . ولعله يقصد بالتسمية مطلق الصفة .

ومع أننى لا أملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التى نزلت فيها مقاطع السورة - فى خلال العام التاسع - إلا أنه يمكن لى الترجيح بأنها نزلت فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كانت قبل غزوة تبوك فى شهر رجب من هذا العام .

والمرحلة الثانية : كانت فى أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ، ثم فى ثناياها .

والمرحلة الثالثة : كانت بعد العودة منها .

أما مقدمة السورة - من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين - فقد نزلت متأخرة فى نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج(١) .

● ولما كان الجزء الأكبر من السورة ، الذى ويستغرق أكثر من

---

(١) قال ابن إسحاق : وحدثنى حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف ، عن أبى جعفر محمد ابن على رضوان الله عليه ، أنه قال : لما نزلت براءة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج ، فقيل له : يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر ؛ فقال: لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى ؛ ثم دعا على بن أبى طالب رضوان الله عليه ؛ فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ؛ وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى ؛ أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ؛ ولا يطوف بالبيت عريان ؛ ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدته ؛ فخرج على بن أبى طالب رضوان الله عليه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء ؛ حتى أدرك أبا بكر بالطريق ؛ فلما رآه أبو بكر بالطريق ، قال أأمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضينا .

فأقام أبو بكر للناس الحج ؛ والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ؛ حتى إذا كان يوم النحر ؛ قام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام للامام المحدث عبد الرحمن السهيلى جـ ٧ ص ٣٤١) .

نصفها ؛ يدور حول المنافقين ، وفضح نواياهم وأعمالهم ، ووصف أحوالهم النفسية والقلبية ، ومواقفهم في غزوة تبوك وقبلها وفي أثنائها وما تلاها ـ وكشف حقيقة حيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد ، وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصفوف ، وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول والعمل ؛ آثرت أن أستعرض وقائع غزوة تبوك على ضوء آيات السورة البينات .

• وغزوة تبوك هي آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

• وسورة براءة هي آخر سورة نزلت من القرآن الكريم (١) .

* * *

غزوة تبوك (٢) :

• كانت في شهر رجب سنة تسع ، وكانت في زمن عسرة ـ في الظهر والزاد والماء (٣) وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ديارهم وظلالهم .

قال عمر رضي الله عنه ـ وقد سئل عن ساعة العسرة ـ : خرجنا في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر من فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقي على كبده !! فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً ،

---

(١) روى البخاري عن البراء « أن آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) وآخر سورة نزلت (براءة) » .

(٣) تبوك مكان معروف بين المدينة ودمشق ، (بينها وبين المدينة ٦٧٠ ك ، وبينها وبين دمشق ٦٨٠ ك) .

(٣) قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء .

فادع لنا ، قال : أتحب ذلك ؟ قال : نعم ، فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ، ثم سكبت ، فملأوا مامعهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر!!

● وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، غير ما كان من أمر هذه الغزوة ـ لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو ـ فقد أخبرهم أنه يريد الروم ، حتى يتأهبوا لذلك أهبته !

● كانت هذه الظروف القاسية ، محكا شديداً للايمان وقوته ، واليقين وشدته ، فالمؤمن القوى لايخاف ولا يجبن ولا يتخاذل ، بل يصمد فى وجه العاصفة مهما كانت قوية عاتية :

ذلك المؤمن المجاهد يغشى ساحة الوغى ، والوغى يخشاه
تحت ظل السيوف ماض قوى سيفه : لا إله إلا الله

ولذلك بادر المسلمون بالاستجابة لنداء الله ، وتلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أذن فيهم بالنفير . .

وقدموا ـ رضوان الله عليهم ـ أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، وحمل كل واحد منهم مهجته وماله ، ومضى ، وكأنه يقول : (وعجلت إليك رب لترضى).

● وحينما تحدث بعض المسلمين أنفسهم بالتثاقل ، يعاتبهم الله تعالى بقوله : (٩ : ٣٨ ، ٣٩ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ، والله على كل شىء قدير) .

● وقد ألهبت هذه الآيات نفوس المؤمنين أجمعين ، وأججتها حماساً فحرصوا على السفر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والجهاد ضمن صفوف جيشه

وبلغ الحرص بالمسلمين أن سبعة من الأنصار - كانوا أهل حاجة وفقر - ذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسألونه أنه يجهزهم للمعركة ، ويدبِّر لهم ما يركبونه للحرب ، فلما لم يجدوا عنده ما يطلبون ، ولوا باكين .

وقد عذرهم الله ، وعذر إخواناً لهم من الضعفاء والمرضى ، حيث يقول : (٩ : ٩١ ، ٩٢ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ، قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لا يجدوا ما ينفقون) .

وقد لقب هؤلاء (بالبكَّائين) .

وفى شأنهم - وشأن من على شاكلتهم - روى أبو داود عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا ، وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم العذر » .

المتخلفون من المسلمين :

● وقد تخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب ، منهم : كعب ابن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وأبو خيثمة السالمى ، وأبو ذر الغفارى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قيل له : يا رسول الله ، تخلف فلان ، يقول : « دعوه ، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يكن غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه » !

* * *

كن أبا خيثمة :

• أما أبو خثيمة فقد رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أياماً ـ إلى أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له ، فى عريشين لهما ، فى حائطه ، قد رشَّت كل واحدة منهما عريشها . وبرّدت له فيه ماء ، وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه ، وما صنعتا له ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد ، وطعام مهيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف ! ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيّئا لى زاداً ، ففعلتا ، ثم قدم ناضحه فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك .

فلما دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كن أبا خيثمة » فقالوا : يارسول الله : هو والله أبو خيثمة .

قال ابن هشام : وقال أبو خيثمة فى ذلك شعراً ، واسمه مالك بن قيس :

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا ... أتيت التى كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدى لمحمد ... فلم أكتسب إثماً ، ولم أغش محرما
تركت «خضيباً» فى العريش «وصرمة» ... صفايا كراماً بسرها قد تحمما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدين نفسى شطره حيث يمما

* * *

كن أباذر :

• وأما أبو ذر ، فقد تلوّم عليه بعيره ، فلما أبطأ به ، أخذ متاعه فحمله على

على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً ، ونزل رسول الله فى بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين ، فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كن أبا ذر » فلما تأمله القوم ، قالوا : يارسول الله ، هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » (١) .

● وأما كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع فقد أنزل الله تعالى فيهم قوله : (٩ : ١١٧ — ١١٩ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) .

---

(١) لقانى أبو ذر إلى الربذة ، وأصابه بها قدره ، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما أن اغسلانى وكفنانى ، ثم ضعانى على قارعة الطريق ، فأول ركب يمر بكم ، فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعينونا على دفنه ، فلما مات فعلا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق ، وأقبل عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق عمار ، فلم يرعهم إلا الجنازة على الطريق قد كادت الإبل تطؤها ، وقام إليهم الغلام ، فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه ، قال : فاستهل عبد الله بن مسعود يبكى ، ويقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم : تمشى وحدك ، وتموت وحدك ، وتبعث وحدك ، ثم نزل هو وأصحابه فواروه ، ثم حدثهم عبد الله ابن مسعود حديثه ، وما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسيره إلى تبوك .

(الروض الأنف حـ ٨ ص ٣١٥) .

ولهؤلاء الثلاثة حديث رائع ، نُنقل بعضه فى آخر حديثنا عن سورة التوبة ـ وخاصة مذكرات « كعب بن مالك » تلك المذكرات التى ينبغى أن يتأملها المسلمون ، ويفهموها .

* * *

المتخلفون من المنافقين :

ويكفينا فى هذا الصدد أن نقرأ ما ورد عن ذلك من الآيات فى سورة التوبة ، وقد ورد عنه الشىء الكثير ـ من ذلك قوله تعالى : (٩ : ٤٢ وما بعدها ـ لو كان عرضاً قريباً ، وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعُدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) ومنه : (٩ : ٨١ وما بعدها ـ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا فى الحر ، قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون : فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معِىَ أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) وقد صورت السورة فى عديد من آياتها ما كان عليه هؤلاء المنافقون من جبن ، وتراجع ، وإيثار للعافية ، ورضًى بالدون ، وإخلاد إلى الأرض .

* * *

ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى :

● ومن أعذار المنافقين التى تعلّلوا بها ، ما جاء عن الجد بن قيس ، إذ حضر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — وهو فى جهازه لهذه الغزوة ـ فقال له

الرسول صلى الله عليه وسلم : « ياجد ! هل لك هذا العام فى جلاد بنى الأصفر - يعنى الروم - » ؟ فقال : « يارسول الله ، أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ ! فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منّى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر ، ولكن أعينك بمالى » فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « قد أذنت لك » !!

وفيه نزل قوله تعالى : (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)[1] .

* * *

كنا نخوض ونلعب :

• وفى لحظات الجد والنضال ، يلجأ المنافقون إلى العبث والاستهزاء ، والتهكم الرخيص ، فقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ، قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات ! ! هيهات ! ! فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : احبسوا على هؤلاء الركوب فأتاهم ، فقال : قلتم كذا .. قلتم كذا ؟ قالوا يانبى الله ، إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون !

وفى رواية ابن إسحاق عن كعب بن مالك قال : قال مخشن بن حمير :

---

(١) فى رد الله - سبحانه وتعالى - على جد بن قيس ، ومن على شاكلته ، بقوله تعالى { ألا فى الفتنة سقطوا } أسرار ينبغى تأملها :

١ - افتتاحه بألا ما يفيد التنبيه والتأمل فيما بعدها ، وتحقيق مضمونه إن كان خبراً .

٢ - التعبير عن افتتانهم بالسقوط فى الفتنة للمبالغة .

٣ - تقديم الجار والمجرور (فى الفتنة) على عامله (سقطوا) للدلالة على الحصر .

لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ننجو من أن ينزل فينا قرآن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ؛ فإن هم أنكروا و كتموا ، فقل : بلى قلتم كذا .. و كذا .. فأدركهم ، فقال لهم : فجاءوا يعتذرون ، فأنزل الله : (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ، قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) فكان الذى عفى عنه مخشن بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله !! فقتل باليمامة لا يعلم مقتله ، ولا من قتله ، ولا يرى له أثر ولا عين .

• وهذه الآيات إنباء من الله تعالى بما كان يقوله للنافقون أثناء سيرهم إلى تبوك من الاستهزاء بتصديه لقتال الروم . .

وكان دفاعهم عن أنفسهم أنهم لم يكونوا جادّين فيما يقولون ، ولكنهم كانوا هازلين لاعبين ، كما هو شأن الذين يخوضون فى الأحاديث المختلفة للتسلى واللهو .. و (الخوض يستعمل للتقحم فى الباطل ؛ لأنه مأخوذ من الخوض فى البحر أو فى الوحل ، قال تعالى فى سورتى الزخرف والمعارج : (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وقال فى سورة الطور : (فويل للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون) وقال فى سورة النساء : (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً) والذى نزله — سبحانه وتعالى — عليهم فى الكتاب ، هو قوله تعالى فى سورة الأنعام التى نزلت قبل هذه السورة — لأنها مكية وهذه السورة مدنية — : (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) .

لا تنفروا فى الحر :

● وقد راح المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول يثبطون المسلمين عن الغزو قائلين : «لا تنفروا فى الحر » ويحكى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى محكم السورة هذا التقاعس والخور ، وإشاعة الخوف والنكوص — فيقول: (٩ : ٨١ ـ ٨٣ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا : لا تنفروا فى الحر ، قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً ، جزاء بما كانوا يكسبون ، فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) .

● وإنما فرح المنافقون بمقعدهم خلاف رسول الله .. ؛ لأنهم لا يؤمنون بما فى الخروج معه صلى الله عليه وسلم من أجر ، وخير .

وإنما قالوا لا تنفروا فى الحر .. نهياً لأصحابهم عن المعروف ، وإغراء لهم بالثبات على المنكر . .

وإنما قال الله تعالى لهم (قل نار جهنم أشد حراً) لأن حر الدنيا مهما طال واشتد ، ينتهى ويزول ، أما نار جهنم فحرها دائم يلفح الوجوه ، وينضج الجلود ، وينزع الشوى ، ويطلع على الأفئدة . .

وقوله تعالى : (فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيراً) معناه ، كمعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم

كثيراً[١] » وفى رواية[٢] : « لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلا ، يظهر النفاق ، وترتفع الأمانة ، وتقبض الرحمة ، ويتهم الأمين ، ويؤتمن غير الأمين ، أناخ بكم الشرف[٣] الجون ، الفتن كأمثال الليل المظلم » .

● ثم يقول الله تعالى لنبيه - تعقيباً على هذا الموقف الجبان - (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ، فاستأذنوك للخروج . فقل لن تخرجوا معى أبداً ، ولن تقاتلوا معى عدواً ! إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين)!

هكذا : لن تخرجوا معى أبداً .. فى أى سفر !!

ولن تقاتلوا معى عدواً .. أىّ عدو !!

وما قيمة أن يخرج فى صفوف المؤمنين هذا الغثاء الذى لا قيمة له ، ولا غناء فيه ؟؟!

* * *

ومنهم من يلمزك فى الصدقات :

● والمنافقون . يبحثون عن « الربح » دائماً ، فالحلال « ما حَلَّ » فى أيديهم والحرام ما « حُرِموه » ! فإذا فاتهم المغنم كفروا وفجروا ، وأدبروا واستكبروا.

● روى البخارى والنسائى ومصنفو التفسير المأثور عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً ، إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى ، فقال : اعدل يارسول الله ! فقال : ويلك !! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ائذن لى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله

---

(١) رواه الجماعة إلا أبا داود من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) رواها الحاكم عن أبى هريرة .

(٣) الشرف — بضمتين — جمع شارف وهى الناقة العالية السن ، والجون : السوداء ، أى : الفتن الكبيرة المظلمة ، فهو تشبيه ، وروى بالقاف . أى التى من مشرق المدينة .

صلى الله عليه وسلم : « دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم » !

وفيهم نزل قول الله تعالى : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) .

* * *

ومنهم الذين يؤذون النبى :

● ومن خلق المنافقين « الهمز » و « اللمز » و « الغيبة » و « النميمة » و « إيقاظ الفتنة النائمة » !

● أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال: كان نبتل بن الحارث يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيجلس إليه ، فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال لهم : « إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه » .

وفيه وفى أمثاله يقول الله تعالى : (٩ : ٦١ ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) .

● وقولهم (أذن) من تسمية الشخص باسم الجارحة للمبالغة فى وصفه بوظيفتها ، وهو كثرة السمع لما يقال وتصديقه ، كأنه كله أذن سامعة ، كقولهم للجاسوس : (عين) .

وإنما أرادوا بإطلاق (الأذن) إطلاق لازمها ، وهو عدم الدقة فى التمييز بين ما يسمع ، وتصديق ما يعقل ومالا يعقل .

وقد لقنه الله — سبحانه وتعالى — الرد عليهم بقوله : (قل أذن خير لكم) أى : نعم ، هو أذن ، ولكنه نِعْم الأذن ؛ لأنه أذن خير لا كما تزعمون ، فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الحق ، وما وافق الشرع ، وما فيه الخير والمصلحة للخلق .

● وإنما كان — صلى الله عليه وسلم — أذن خير لهم ؛ لأنه كان يعاملهم بالحلم ، وما يقتضيه حكم الشرع من العمل بالظواهر ، ولو كان يعاملهم بمقتضى ما يقولون من كونه (أذن) لما سلم واحد منهم من عقابه . ولكنه كان دائماً يعرض عنهم ، ويقول : « إنى أخشى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » !!

* * *

ومنهم من عاهد الله :

● والذهب فى حياة المنافق هو كل شىء ؛ الخلق ، والفضيلة ، والدين .

والذهب فى عقله .. ثمن أى شىء ؛ المواهب ، والضمائر ، والرجال !

والذهب فى قلبه .. مقياس كل شىء ؛ الحق والنور والخير والجمال !

فهو إلهه الذى يعبده ، ويحمده ، ويسجد له ، ويرغب فيه ، ويرهب منه!

ولغة المنافق ، لغة لها « رنين » خاص ؛ تسمع فيها « وسوسة » الذهب ، و « أنانية » الثروة ، و « غطرسة » المستبد ، و « عزة » الرزاق !

أخرج الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ العسكرى فى الأمثال والطبرانى وابن منده والبارودى وأبو نعيم فى معرفة الصحابة

وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل وابن عساكر، عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه ـ قال :

● جاء ثعلبة بن خاطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : ويحك يا ثعلبة : أما ترضى أن تكون مثلى ؟ فو الله لو شئت أن يسيِّر ربى هذه الجبال معى ذهباً وفضة لسارت ! قال : يا رسول الله ! ادع الله أن يرزقنى مالا ، فو الذى بعثك بالحق إن آتانى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه . قال : ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره ، خير من كثير لا تطيق شكره . فقال : يا رسول الله ادع الله تعالى لى . . .

● فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : اللهم ارزقه مالا . فاتجر ، واشترى غنما فبورك له فيها ، ونمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت بها المدينة .. فتنحى بها ، ونزل وادياً من أوديتها ، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يشهدها بالليل . . .

ثم نمت كما ينمو الدود ، فضاق بها مكانه ، فتنحى بها ، فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

فجعل يتلقى الركبان ، ويسألهم عن الأخبار ، وفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عنه ، فأخبروه أنه اشترى غنما ، وأن للمدينة ضاقت به ، وأخبروه بخبره .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويح ثعلبة بن حاطب ، ويح ثعلبة بن حاطب . . ويح ثعلبة بن حاطب » .

● ثم إن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ الصدقات ، وأنزل الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين : رجلا من جهينة ، ورجلا من بنى سلمة يأخذان الصدقات ، وكتب لهم أسنان الإبل والغنم وكيف يأخذانها على وجهها ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بنى سليم .

● فخرجا . . فمرّا بثعلبة . . فسألاه الصدقة . فقال: «أريانى كتابكما» . . فنظر فيه ، فقال «ما هذه إلا جزية . . ما هذه إلا أخت الجزية » . . « انطلقا حتى تفرغا ثم مرّا بى » . .

قال : فانطلقا . . وسمع بهما السلمى فاستقبلهما بخيار إبله ، فقالا : إنما عليك دونها ، فقال : ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخيار مالى !! فقبلاه !!

● فلما فرغا مرّا بثعلبة — فقال : « أريانى كتابكما » !! . . فنظر فيه فقال : « ما هذه إلا جزية . . ما هـــذه إلا أخت الجزية . . انطلقا حتى أرى رأيى » !!

* * *

فانطلقا . . حتى قدما المدينة . . فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ـ قبل أن يكلمهما : « ويح ثعلبة بن حاطب . . ويح ثعلبة بن حاطب . . ويح ثعلبة بن حاطب » ودعا للسلمى بالبركة . .

وأنزل الله تعالى : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ، ألم يعلموا أن الله هو يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب)

● قال فسمع بعض أقارب ثعلبة — فأتى ثعلبة ، فقال : « ويحك يا ثعلبة . أنزل الله فيك كذا . . وكذا » . قال : فقدم ثعلبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، هذه صدقة مالى !! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد منعنى أن أقبل منك » !

قال : فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى . فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مضى .

● ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه ، فقال : «يا أبا بكر ، اقبل منى صدقتى ، فقد عرفت منزلتى من الأنصار » فقال أبو بكر رضى الله عنه : « لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبلها ؟ » فلم يقبلها أبو بكر . ثم ولى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، فأتاه ، فقال : « يا أبا حفص ، يا أمير المؤمنين ، اقبل منى صدقتى » . فقال عمر : « لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بكر ، أقبلها أنا ؟ » ، ثم ولّى عثمان ، فهلك فى خلافة عثمان .

* * *

● ثم تقول الآيات البينات :

(الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) .

لم يكتف « ثعلبة » ورفاقه بما فعلوا ، بل أخذوا يتقوّلون الأقاويل على المتصدقين ، ويلقون الأشواك فى طريق العاملين .

واقرأ معى بقية القصة :

● روى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنهما ، قال : «لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشىء كثير ، فقالوا (مراء)، وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات و الذين لا يجدون إلا جهدهم) .

● وروى الإمام أحمد عن أبى السليل ، قال : « وقف علينا رجل فى مجلسنا بالبقيع فقال : حدثنى أبى أو عمى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع ، وهو يقول : « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة ؟» . قال : فحللت من عمامتى لوثاً أو لوثين ، وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فأدركنى مايدرك ابن آدم فعقدت على عمامتى . فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سواداً ،

ولا أصغر منه ولا أذم بناقة ساقها لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها ، فقال يارسول الله :أصدقة ؟ قال : نعم . قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه رجل . فقال: هذا يتصدق بهذه ؟ فوالله لهى خير منه .

قال : فسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال : كذبت ،بل هو خير منك ومنها — ثلاث مرات ؟؟

ثم قال : « ويل لأصحاب المئين من الإبل — ويل لأصحاب المئين من الإبل .. ويل لأصحاب المئين من الإبل » قالوا : إلا مَنْ يا رسول الله ؟

قال : إلا من قال بالمال هكذا .. وهكذا — وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله — يعنى : إلا من أنفق أمواله . فى سبيل الحق ..

ثم قال : « قد أفلح المزهد المجهد، قد أفلح المزهد المجهد ، قد أفلح المزهد المجهد » يعنى : المزهد فى العيش .

والمجهد فى العبادة .

* * *

● ثم . . تنتهى قصة ثعلبة . . .

الرجل الذى ألجأه الفقر والحاجة إلى معرفة الله ، واللياذ بجنابه فلما أصاب ما أمّل من غنى ،نسى الله ونسى أيامه !!

الرجل . . الذى كان يؤمن بالإنسان كأخ فى الدين ،وزميل على الطريق، ورفيق فى الحياة ؛ فلما تكاثر ماله كفر بالإنسان وبالطريق وبالحياة ! !

الرجل الذى أقام من الذهب « صنما » ثم سجد له سجدة عميقة ، فيها ذل العابد ، وهيام العاشق ، وعربدة المفتون ! .

وثعلبة . . ليس رجلا واحداً حفظ له التاريخ قصة . . إن « ثعلبة » رجال

كثيرون . . يعيشون فى أزمنة كثيرة ، لهم نفس الضمير ، ونفس التفكير ، ونفس الشعور الشرس !!

إن « ثعلبة » شعار للسُّعار المادى . . الذى يجعل الإنسان يغفل عن كل شىء حتى عن نفسه . . ويلهو بكل شىء حتى بمقدساته هو . .

* * *

مناقشة قصة ثعلبة :

وفى قصة ثعلبة — سؤال ينبغى أن نقف قليلا لنناقشه — هو : — أليس مجىء ثعلبة ، وحثوه التراب على رأسه توبة ؟ فلماذا لم يقبل النبى صلى الله عليه وسلم صدقته ؟ !

والذى يوحى به السياق أن «ثعلبة» لم يجىء تائباً . . وإنما جاء راغباً فى دفع العار الذى لحقه . . وإنما منع الله نبيه من قبول صدقته وصدقة أمثاله . . ليعلموا أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً : (٩ : ٥٣ ، ٥٤ قل : أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ، وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون) .

قال الشهاب[1] : مجىء ثعلبة وحثوه التراب ليس للتوبة من نفاقه ؛ بل للعار الذى لحقه من عدم قبول زكاته مع المسلمين وقوله صلوات الله عليه : «هذا عملك » أى جزاء عملك ، وهو رفضه إعطاء الصدقة ، مع مقالته الشنعاء ! !

وقال الحاكم : إن قيل : كيف لم تقبل صدقته ، وهو مكلف بالتصدق ؟

---

(١) القاسمى : ج ٨ ص ٣٢٠٨ .

أجيب : بأنه يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك ، كيلا يجترىء الناس على نقض العهد ، ومخالفة أمر الله تعالى ، ورد سعاة النبي صلى الله عليه وسلم ! !

وقال الرازى :ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد ،وخلف الوعد ؛يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالغ فى الاحتراز عنه، فإذا عاهدالله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به ، ومذهب الحسن البصرى رحمه الله : أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية وبقوله عليه السلام : « ثلاث من كن فيه فهو منافق، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن ؛ إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »[1] .

ويقول القاسمى[2] : « دلّ قوله تعالى : (إلى يوم يلقونه) على أن ذلك المعاهد مات منافقاً » !

* * *

مسجد الضرار :

يقول الله تعالى : (٩:١٠٧-١١٠ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل؛ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد أنهم لكاذبون،لاتقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ؛ أحق أن تقوم فيه،فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٢) حـ ٨ ص ٣٢١٠ .

● وسبب نزول هذه الآيات ؛ أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له : « أبو عامر الراهب »، وكان قد تنصَّر فى الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير ؛ فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للاسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركى قريش ، فألَّبهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفَّين ، فوقع فى إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه : وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ؛ فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه، قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ، يا عدو الله ، ونالوا منه وسبُّوه !! فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومى بعدى شر !!

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم ، وتمرد ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدعوة !![1] .

● ولما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من أحد ، ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ارتفاع وظهور؛ ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على

---

(١) مات كافراً بقنسرين (كورة بالشام) .

النبى صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء؛ فبنوه، وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك .

● وجاءوا ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : « إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » .

فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم ، أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار !! فأمر بهدمه وتحريقه .

● يقول القاسمى (١) : دلت الآيات على أن كل مسجد بُنِىَ على مابنى عليه مسجد الضرار أنه لا حكم له ولا حرمة ، ولا يصح الوقف عليه !

وقال الزمخشرى : كل مسجد بنى مباهاة أورياءأو سمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار .

---

(١) حـ ٨ ص ٣٢٦٨ .

وقال الإمام ابن القيم[١] : فى فوائد غزوة تبوك :

ومنها : تحريق أمكنة المعصية التى يعصى الله ورسوله فيها وهدمها ؛ كما حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار وأمر بهدمه ، وهو مسجد يصلى فيه ، ويذكر اسم الله فيه ، لما كان بناؤه ضراراً ، وتفريقاً بين المؤمنين ، ومأوى للمنافقين ، وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله ؛ إما بهدم أو تحريق ، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له ، وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التى تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بذلك وأوجب ، وكذلك محال المعاصى والفسوق ، كالحانات وبيوت الخمارين : وأرباب المنكرات ، وقد حرق عمر رضى الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رويشد الثقفى وسماه (فويسقا)وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية ، وهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريق بيوت تاركى حضور الجماعة والجمعة ؛ وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم ، كما أخبر هو عن ذلك[٢] .

● والذين يعاونون مادياً على إقامة أماكن الشقاق والنفاق ملعنون مذمومون !

ففى القرطبى[٣] : قال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلا من بناة مسجد الضرار بماذا أعنت فى هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية ، فقال : أبشر بها ، سارية فى عنقك من نار جهنم !

---

(١) زاد المعاد حـ ٢ ص ١٠ .

(٢) يشير إلى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) حـ ٨ ص ٢٥٤ .

● كذلك فإن الذين يعاونون معنوياً على هذا العمل ملعونون مذمومون .

فقد روى القرطبى ـ أيضاً : أن بنى عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء ، سألوا عمر بن الخطاب فى خلافته ليأذن لمجمع بن جارية أن يصلى لهم فى مسجدهم ، فقال : لا . ولا نعمة عين !! أليس بإمام مسجد الضرار ؟ فقال له مجمع : يا أمير المؤمنين لا تعجل علىّ ، فوالله لقد صليت فيه ، وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرأون من القرآن شيئاً ، فصليت وما أحسب ما صنعت إثماً ، ولا أعلم بما فى أنفسهم ، فعذره عمر رضى الله عنهما وصدقه وأمره بالصلاة فى مسجد قباء !!

● وقد وصف الله تعالى مسجد الضرار بأربع صفات : (ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل) .

وبضدّ هذه الصفات تتحدد رسالة المسجد ـ فهى :

١ ـ للمنفعة .. لا للضرر .

٢ ـ وللإيمان .. لا للكفر .

٣ ـ ولتوحيد الصفوف . لا للتفريق بين المؤمنين !

٤ ـ ولنشر الدعوة .. لا للإرصاد لمن حارب الله ورسوله !

. . .

ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً !

● ثم تقول « سورة التوبة » : (٩ : ٨٥ ، ٨٤ ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ،

ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) .

وهكذا . . تقول السورة كلمتها الأخيرة فى المنافقين . . وهم فى الطريق إلى مثواهم الأخير ! ! فهى تدمغهم فى آخر لحظة بهذا الاتهام البشع (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) .

ومن أجل هذه الخاتمة الخائبة جاء النهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم مرتين (ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً) .

(ولا تقم على قبره) ! ! !

● والمقصود بالصلاة فى قوله تعالى : (ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً) صلاة الجنازة ، وبالقيام على قبره ؛ الوقوف على القبر عند الدفن والدعاء للميت بالتثبيت كما يفعل بالمؤمنين عند دفنهم . . فقد روى أبو داود والحاكم وصححه والبزار من حديث عثمان رضى الله عنه ، قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه ، فقال : استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » .

● وينبغى لنا أن نتوقف قليلا لنناقش الأحاديث التى تروى بهذا الصدد والتى تدور حول « وفاة عبد الله بن أبى » وصلاة النبى صلى الله عليه وسلم ، عليه واستغفاره له وتكفينه فى قميصه .

فقد روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : « لما توفى عبد الله بن أبى ؛ دُعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه ، فلما وقف قلت : أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى

القائل : كذ وكذا . . والقائل : كذا وكذا ـ أعدّد أيامه ـ ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم — حتى إذا أكثرت ، قال : يا عمر أخِّر عنّى ، إنى قد خيّرت ، قد قيل لى : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة) فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها . ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبت لى ، ولجرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم ! فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره) فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل .

وروى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : « لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! أتصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما خيّرنى الله فقال : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة) وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق ، قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : (ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) زاد مسلم فى رواية أخرى : « فترك الصلاة عليهم » .

وروى مسلم من حديث جابر بن عبدالله كان يقول : « أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبر عبدالله بن أبى » وفى رواية «جاء إلى عبدالله بن أبى بعد ما أدخل فى حفرته ، فأخرجه من قبره ، فوضعه على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه » .

• وقد لاحظ العلامة رشيد رضا على هذه الأحاديث عدة ملاحظات نثبتها مع بعض التصرف ، لما فيها من الفائدة :

١ — جعل الصلاة على ابن أُبى سبباً لنزول آية النهى ، مع أن سياق القرآن صريح فى أنها نزلت فى سفر غزوة تبوك سنة ثمان ، وإنما مات ابن أبى فى السنة التى بعدها .

٢ — قول عمر للنبى صلى الله عليه وسلم : « وقد نهاك ربك أن تصلى عليه » يدل على أن النهى عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أُبى . وقوله بعده : « فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : (ولا تصلِّ على أحد منهم) الخ » نص صريح فى أنه نزل بعد موته والصلاة عليه .

٣ — قوله : إنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى خيَّره فى الاستغفار لهم وعدمه » إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كما ذكر فى الحديث ، ولم يكن فى بقيتها التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم ، وأن الله لا يهدى القوم الفاسقين ، ومن ثم كان المتبادر من « أو » فيها أنها للتسوية بين ما بعدها وماقبلها لا للتخيير ، وبه فسرها المحققون ، كما فهمها عمر ، واستشكلوا الحديث ، إذ لا يعقل أن يكون فهم عمر أو غيره أصح من فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لخطاب الله له ، ولذلك أنكر بعضهم صحته — كما يأتى .

٤ — التعارض بين رواية « فلو أعلم أننى لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » ورواية : « وسأزيد على السبعين » .

٥ — التعارض بين إعطائه صلى الله عليه وسلم قميصه لابنه لتكفينه فيه ، وحديث جابر الذى فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم أخرجه من قبره وألبسه قميصه .

٦ — إذا أمكن أن تكون الصلاة على ابن أُبى قبل نزول النهى عن الصلاة عليهم فلا شك فى أنها كانت بعد آية : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) وآية : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) والجزم فى كلا الآيتين بأن الله لن يغفر لهم [١] .

● وليس « رشيد رضا » وحده هو الذى ناقش متن هذا الحديث ، فمن قبله ناقشه القاضى أبو بكر ، وإمام الحرمين ، والغزالى وغيرهم .

يقول القاضى أبو بكر — منكراً صحة الحديث — : لا يجوز أن يقبل هذا ، ولا يصح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله . ويقول فى التقريب : هذا الحديث من أخبار الآحاد التى لا يعلم ثبوتها .

ويقول إمام الحرمين : هذا حديث لا يصححه أهل الحديث .

ويقول الغزالى فى المستصفى : الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح .

● إذا تحقق هذا فإن الآية تبقى بين أيدينا نصاً محكماً فى نهى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على المنافقين أو الاستغفار لهم .. وتاريخ النزول — كما أسلفت — يؤكد أن الآيات أسبق نزولا من موت عبد الله ابن أُبى ! !

* * *

مذكرات كعب بن مالك :

انتهت غزوة تبوك . . وقد عاد منها الرسول صلى الله عليه وسلم مظفراً منصوراً . . فقد بثَّ الرعب فى قلوب أعداء الله . وأعداء دينه .

---

(١) تفسير المنار حـ ١ ص ٦٦٦ .

ولما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا وكانوا ثمانين من المنافقين ، وثلاثة من المسلمين ـ وهم الذين أسلفت حديثهم ـ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « لا تكلموا رجلا منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم » وأعرض عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه ! !

أما المنافقون .. فقد راحوا يبذلون الأيمان الكاذبة بسخاء وقح .. (٩ : ٩٤ ، ٩٥ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل : لا تعتذروا لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ، سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) .

وهكذا شأن المنافقين دائماً ... يحصّنون أوكارهم بالأيمان الفاجرة ، علّهم يستخفون بها من عين النهار ! !

فهم دائماً يحلفون . .

وهم دائماً يكذبون .. ويفجرون ! !

فتراهم فى الآية ٤٢ كما يقول الله تعالى : (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون) .

وفى الآية ٥٦ : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) .

وفى الآية ٦٢ : (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) .

وفى الآية ٧٤ : (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا) .

وفى الآية ١٠٧ : (وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) .

* * *

● وأما المسلمون الصادقون .. ؛ وهم الثلاثة الذين خُلفوا .. فيكفى أن نقدم مذكرات واحد منهم ـ هو : « كعب بن مالك » رضى الله عنه ! قال :

● لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً ممن تخلف عنها . إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، وقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ؛ وإن كانت بدر أذْكر فى الناس .

● وكان من خبرى حين تخلفت عنه فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، ووالله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة .

● وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّما يريد غزوة إلا ورّى عنها بغيرها ـ حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً وغزو عدوٍّ كثير ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته ، وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير

لا يجمعهم كتاب حافظ . (يعنى : بذلك الديوان) فقلّ رجل أن يتخلف يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك يخفى ما لم ينزل فيه وحى من الله .

• وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طابت الثمار وأحبت الظلال، فالناس إليها صعو (مائلون) فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتجهز المسلمون معه وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول فى نفسى أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمّر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً . فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفرط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت، فلم أفعل ، وجعلت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم ، يحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا [مطعوناً] عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .

• ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « مافعل كعب بن مالك» فقال رجل من بنى سلمة : « يارسول الله حبسه حب برديه، والنظر فى عطفيه » فقال له معاذ بن جبل : بئس ماقلت، والله يا رسول الله ماعلمنا منه إلا خيراً » فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما بلغنى أن رسول قد توجّه قافلا من تبوك حضرنى بثّى، فجعلت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطة رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا ، وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى . فلما قيل إن رسول الله قد أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لا أنجو منه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقه . وصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

• وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثم جلس

للناس ، فلما فعل ذلك جاء المخلفون ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، كانوا بضعة وثمانين رجلا ، فيقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وأيمانهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم الغضب ، ثم قال لى تَعَالَهْ ، فجئت أمشى ؛ حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ قلت إنى يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً لترضين عنى وليوشكن الله أن يسخطك علىّ ، ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجد علىّ فيه، إنى لأرجو عقبای من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، ووالله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدقتَ فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك ، فقمت .

● وثار معى رجال من بنى سلمة ، فاتبعونى وقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت لرسول الله بما اعتذر به إليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول رسول الله لك، فوالله مازالوا بى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا أحد غيرى ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مقالتك ، وقيل لهما مثل ماقيل لك ، قلت من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى من بنى عمرو بن عوف ، وهلال ابن أبى أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين فيهما أسوة . فَصَمَتُّ حين ذكروهما لى .

● ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة ، من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا — حتى تنكرت لى نفسى والأرض ، فما هى التى بالأرض كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت

أخرج ، وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى ، هل حرك شفتيه بردِّ السلام علىَّ أم لا ؟ ، ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ وإذا التفت نحوه أعرض عنى .

● حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلىَّ ، فسلمت عليه فوالله ماردَّ علىَّ السلام . فقلت : ياأبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ، فسكت فعدت فناشدته فسكت عنى ، فعدت فناشدته فسكت عنى ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى ، ووثبت فتسورت الحائط .

● ثم غدوت إلى السوق فبينا أنا أمشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك قال فجعل الناس يشيرون إلىَّ حتى جاءنى ، فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكان الكتاب مكتوباً فى سرقة من حرير (شقة) فإذا فيه : « أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، فالحق بنا نواسك » فقلت حين قرأتها : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فىَّ رجل من أهل الشرك ، فعمدت بها إلى تنُّور فسجرته بها .

فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسول رسول الله يأتينى فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قلت أطلقها أم ماذا ؟ قال بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبَىَّ بمثل ذلك . فقلت لامرأتى الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض .

● وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت : يارسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لاخادم له أفتكرهُ أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك ، قالت : والله يا رسول الله ما به من حركة إلىّ ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره .

● فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا استأذنه فيها ، وما أدرى ما يقول رسول الله صلى عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

● فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا . ثم صليت الصبح ، صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، على الحال التى ذكر الله بنا ، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وضاقت علىّ نفسى . وقد كنت ابتنيت خيمة فى ظهر سلع ، فكنت أكون فيها ، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب ابن مالك أبشر ، فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج — وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر — فذهب الناس يبشروننا وذهب نحو صاحبىّ مبشرون ، وركض رجل إلى فرساً ، وسعى ساع من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى ، نزعت ثوبى فكسوتهما إياه بشارة ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما . ثم انطلقت أتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلقانى الناس يبشروننى بالتوبة يقولون لينهك توبة الله عليك : حتى دخلت المسجد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس ، فقام طلحة بن

عبيد الله يهرول ، فيأتى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة[1] .

فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى ووجهه يبرق من السرور : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك . قلت : أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله .

● وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يارسول الله إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ، قلت : إنى ممسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يا رسول الله إن الله قد نجانى بالصدق ، وإن من توبتى إلى الله ألا أحدث إلا صدقاً ما حييت ، والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أفضل مما أبلانى الله ، والله ما تعمّدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى - فوالله ما أنعم الله علىّ نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام ، كانت أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ألا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تبارك وتعالى قال فى الذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، قال : (٩ : ٩٥ ، ٩٦ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن

---

(١) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين كعب بن مالك وطلحة بن عبيد الله .

القوم الفاسقين) .

قال كعب : وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فعذرهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ما قضى » .

* * *

● وقد أنزل الله تعالى فى شأن توبتهم قوله : (٩ : ١١٧ - ١١٩ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) .

* * *

هذه هى « سورة التوبة » السورة التى كان المنافقون يخشون نزولها : (٩ : ٦٤ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل : استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) . ولكن الله أنزلها حسرة عليهم وخزياً لهم ، وتحذيراً للمسلمين — فى كل زمان ومكان — حتى لا ينخدعوا بهم أو بما يقولون ويفعلون ! !

فى سورة الحج

نماذج بشرية :

(٢٢ : ٣ ، ٤ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) .

(٢٢ : ٨ — ١٠ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) .

(٢٢ : ١١ — ١٣ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ، يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ، يدعو لمن ضرُّه أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) .

* * *

ومن الناس :

لفظ تفتتح به بعض الآيات القرآنية ؛ أو يجىء فى خلالها ، وأغلب الظن أنه يذكر فى معرض الحديث عن المنافقين خاصة .

ففى سورة البقرة : (٢ : ٨ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) .

(٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب

الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ، أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب) .

(٢ : ٢٠٠ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق) .

(٢ : ٢٠٤ - ٢٠٦ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له : اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) .

وفى سورة العنكبوت : (٢٩ : ١٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) .

وفى سورة لقمان : (٣١ : ٦ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين) .

(٣١ : ٢٠ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) .

● فتلك سبعة مواضع تكرر فيها لفظ (ومن الناس) فإذا ما أضيف إليها المواضع الثلاثة التى جاءت فى سورة الحج ؛ فإنها تصبح عشرة كاملة !!

ومن خلال هذه المواضع العشرة ؛ تلتقى بنماذج للمنافقين :

● فأنت تلتقى بالمنافق المخادع الذى يعلن الإيمان شعاراً ودثاراً ، ثم يخفى فى حناياه الكفر الدنىء الوبىء ! !

● وأنت تلتقى بالمنافق الذى يبعثر هواه فى كل اتجاه ، ويلقى بمشاعره وعواطفه وحبه تحت أقدام « الأنداد » التى عبدها من دون الله ، ثم يحرق « قلبه بخوراً » فى معابدها وهيا كلها ! !

● وأنت تلتقى بالمنافق « العليم اللسان » الخئون الجبان ، فيعجبك مقاله وتغضبك فعاله !

● وأنت تلتقى بالمنافق « الخائر » العزيمة ، « الخاسر » الصفقة ، الذى يتخلى عن دينه عند أول امتحان ، ويولى الأدبار عند أول ابتلاء ! !

● وأنت تلتقى بالمنافق الذى يبيع « قرآن الله » ودينه بالمعازف ، والملاهى ، والأدب الرخيص ، والفن العارى ، والفكر المستورد ! !

● وأنت تلتقى بالمنافق السفيه[1] الذى يقضى وقته فى « الجدل » و « المراء » و « المكابرة » دون رغبة فى الحق أو الوصول إليه ! !

* * *

● ثم تلتقى فى « سورة الحج » بنماذج بشرية أخرى ! !

● و « سورة الحج » سورة لها طابع قوى شديد رهيب تلمح ذلك فى افتتاحها وفى سياقها .

فى افتتاحها يصور الله تعالى هول يوم القيامة وزلزلته ـ فيقول تعالى : (٢٢ : ١ ، ٢ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

وفى أثنائها يصور هول العذاب المعد للكافرين فيقول : (٢٢ : ١٩ـ٢٢

---

(١) مراتب الجهل ثلاثة :
الجهل البسيط : وهو أن يجهل ويعلم أنه يجهل .
الجهل المركب : وهو أن يجهل ويجهل أنه يجهل .
السفه : وهو أن يجهل ويجهل أنه يجهل .. ثم يدافع عن جهله ونزقه !

فالذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) .

ويصور المصير الخائب الخاسر للمشرك : (٢٢ : ٣١ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) .

ثم يصور اليأس القاتل الذى يعترى قلوب الجاحدين والمعاندين : (٢٢ : ١٥ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبنّ كيده ما يغيظ) .

و... ثم يصور مصير الطاغين والظالمين والمفسدين : (٢٢ : ٤٥ فكأيّن من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) .

* * *

• ومن خلال هذا الجو الرهيب المهيب الذى يشيع فى آيات السورة وكلماتها ، ذلك الجو الذى تخشع له القلوب ، وتدمع له العيون ، وترتجف من هوله الفرائص ؛ تطل علينا « صور » المنافقين ؛ شرسة الملامح ، جاحظة العيون ، مصعرة الخد ، لاوية الجيد ، هازلة ، هازئة ، مجادلة فى الله بغير علم ! !

• وتأمل قوله تعالى : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) تجد أن المنافق لا يستصحب معه حجة ، ولا دليلا ، ولا برهاناً ، ولا كتاباً منيراً ؛ وإنما يحمل معه النزق ، والهوس ، والجنون ، والمجون ، والطيش ، والسفه ، والاستهزاء ! !

يقول الزمخشرى : « وهى عامة فى كل من تعاطى الجدال ، فيما يجوز على الله ومالا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم ، ولا يعضّ فيه

بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع للبرهان ، ولا نزول على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل » .

● وتأمل لماذا كرر الله سبحانه وتعالى هذا التعبير مرتين (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) مرة فى الآية الثالثة ، ومرة فى الآية الثامنة ؛ تجد أن المرة الأولى ذكرت فى معرض « القيامة » وأهوالها ؛ فكأن الآية تقول — وعلى الرغم من أهوال القيامة ، وشدة عذابها فإن من (الناس من يجادل فى الله بغير علم) ! !

أما المرة الثانية فقد جاءت بعد الحديث عن عظمة الله وقدرته ، وآياته فى الآفاق وفى الأنفس ، فكأن الآية تقول — وعلى الرغم من عزة الله وقدرته وسلطانه فإن من (الناس من يجادل فى الله بغير علم) !!

وقيل : إن الآية الأولى فى المقلِّدين ، والآية الثانية فى المقلَّدين ! !

ويقول الرازى : فإن قيل : كيف يصح هذا ، والمقلد لا يكون مجادلا ؟ قلنا : قد يجادل تصويباً لتقليده ! !

● وتصور الآيات « جدال المنافق » على الوجه التالى :

أدلتـه : (بغير علم) .

أسلوبه : (ثانى عطفه) .

أستاذه : (ويتبع كل شيطان مريد) .

هـدفه : (ليضل عن سبيل الله) .

حيـاته : (له فى الدنيا خزى) .

آخرته : (نذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) .

● وقوله تعالى (ثانى عطفه) معناه : لاوٍ رقبته ، وثنى العطف ، كما

يقول الزمخشرى : كناية عن الكبر والخيلاء ، كتصعير الخد ، ولىّ الجيد .

وهو الأسلوب الذى يواجه به المنافقون والكافرون هيمنة الحق وسلطانه .

وفى معناه آيات كثيرة كقوله تعالى : (٥١ : ٣٨ ، ٣٩ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه وقال : ساحر أو مجنون) (٤ : ٦١ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) (٦٣ : ٥ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لَوَّوا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) وفى قول لقمان لابنه : (ولا تُصَعِّرْ خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً) .

وماذا يملك الرعديد الجبان فى مواجهة الحق غير الإدبار والاستكبار وتصعير الخد ؟ !

* * *

● ثم تقدم « السورة » نموذجاً بشرياً آخر . .

إنه ذلك الإنسان الذى يرى أن العقيدة مجال مقامرة ومغامرة ومتاجرة !!

(فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) !!

لأنه لم يؤمن عن يقين ، وإذعان ، وتسليم ؛ وإنما آمن « رياء » و « سمعة » ! !

أو كما قال الله تعالى : (يعبد الله على حرف) على شفا جُرُف هار فانهار به فى نار جهنم !!

إن المنافق لا يثق بوعد الله ، ولا بوعيده ، ولا يرجو له وقاراً ، ولا يخشى له لقاء ! ! ومن أجل هذا ينخلع قلبه عند أول نازلة ! !

ولكن . . إلى أين يولِّى المنافق وجهه ، بعد أن أعرض عن الله ؟

(يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه) .

(يدعو لمن ضره أقرب من نفعه)[١] !!

وهكذا يترك الإله الواحد الخلاق الرزاق بديع السموات والأرض ، وينصرف إلى آلهة شتى لا تنفع ولا تشفع !

(ذلك هو الضلال البعيد) ! !

(لبئس المولى ولبئس العشير) .

• روى البخارى عن ابن عباس — فى سبب نزول الآية — قال : « كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ، ونتجت خيله ، قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله ، قال : هذا دين سوء » ! !

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[٢] : هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة ، وإن فسدت عليه دنياه ، وتغيرت ، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه ؛ فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ، ترك دينه ورجع إلى الكفر .

وقال أبو سعيد الخدرى[٣] : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله فتشاءم بالإسلام ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقِلنى ، فقال :

---

(١) نفت الآية الأولى ضرر ما يعبد من دون الله : « يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه » أى : باعتبار نفسه . وأثبتت الآية الثانية الضرر له « يدعو لمن ضره أقرب من نفعه » أى باعتبار معبوديته .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٠٩ .

(٣) تفسير القرطبى جـ ١٢ ص ١٧ .

إن الإسلام لا يقال، فقال: إنى لم أصب فى دينى هذا خيراً؛ ذهب بصرى ومالى وولدى! فقال: «يا يهودى! إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب»!!

* * *

● أرأيت إلى هذه «النماذج البشرية».. وكيف صورتها آيات القرآن!!؟

أرأيت كيف عبرت الآيات أصدق تعبير عن حركات الوجوه، ودخائل النفوس، وكوامن القلوب!!؟

أرأيت ....؟

فى سورة النور

الذين يحبون أن تشيع الفاحشة :

(٢٤ : ١١ — ٢٦ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ؛ بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولّى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا : هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ؛ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّنا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه ، قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك ! ! هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبيّن الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم .

يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ، ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم .

إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة

ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ؛ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

* * *

● وتروى أمنا الصدِّيقة المبرأة عائشة رضى الله عنها سبب نزول هذه الآيات — فتقول[١] :

● كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ؛ فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه .

● قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها[٢] فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل فى هَوْدجى وأنزل فيه . فسرنا ، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل . ودنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فإذا عقد لى من جزع ظفار[٣] قد انقطع ، فالتمست عقدى ، وحبسنى ابتغاؤه .

● وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى الذى كنت ركبت ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك

---

(١) هى رواية البخارى عن عروة بن الزبير عن عائشة .

(٢) هى غزوة بنى المصطلق من خزاعة سنة ست .

(٣) الجزع : خرز معروف فى سواده بياض كالعروق ، الظفار : مدينة باليمن .

خفافاً لم يثقلهن اللحم ؛ إنما تأكل العُلْقة[١] من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فأممت منزلى الذى كنت به ، وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلىّ .

● فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ؛ وكان صفوان بن المعطل السليمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى ، فعرفنى حين رآنى ، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمّرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتها ؛ فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين[٢] فى نحر الظهيرة .

● فهلك من هلك[٣] ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول .

● فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، لا اشعر بشىء من ذلك ، وهو يريبنى[٤] فى وجعى ؛ أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين

---

(١) العلقة ـ كعرفة ـ : القليل .

(٢) موغرين : داخلين ، ونحر الظهيرة : هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع .

(٣) أى بسبب الإفك .

(٤) يريبنى ـ بفتح أوله وبضمه ـ : أى : يشكنى ويوهمنى .

أشتكى ، إنما يدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم [١] ثم ينصرف ، فذلك الذى يريبنى .

● ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت ، فخرجت مع « أم مسطح » قِبَل المناصع ـ وهو متبرَّزنا ـ وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا ، وأمرُنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط .

● فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهى بنت أبى رهم بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وابنها مسطح بن أثاثة .

● فأقبلت ـ أنا وأم مسطح ـ قبل بيتى قد فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا قد شهد بدراً ؟ ! قالت : أى هنتاه ، أو لم تسمعى ما قال ؟ قالت : قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً على مرضى .

● قالت : فلما رجعت إلى بيتى ، ودخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « كيف تيكم » ؟ ، فقلت : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ؛ قالت : فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أبوى .

● فقلت لأمى : يا أمتاه ، ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية ، هوِّنى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قالت : فقلت : سبحان الله ! ولقد تحدث الناس بهذا ؟

---

(١) زاد البخارى بعد هذا : « ثم يقول : كيف تيكم .. الخ »

• قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى[١] دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكى .

• فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وأسامة بن زيد رضى الله عنهما حين استلبث الوحى[٢] يستأمرهما فى فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد ، فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الودّ ، فقال : يارسول الله ، أهلك ، ومانعلم إلا خيراً ، وأما على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فقال : يارسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك . قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة ، فقال : أى بريرة ، هل رأيت من شىء يريبك ؟ . قالت بريرة : لا والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه[٣] عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن[٤] فتأكله .

• فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من عبدالله بن أبى بن سلول ، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو على المنبر : « يامعشر المسلمين ، من يعذرنى[٥] من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ! فوالله ماعلمت على أهلى

---

(١) لايرقأ : لاينقطع

(٢) الوحى : بالرفع فاعل ، أى طال لبث نزوله ، وضبط بالنصب على أنه مفعول به ، أى : استبطأ النبى صلى الله عليه وسلم الوحى .

(٣) إن رأيت : ما رأيت ، وأغمصه : أعيبه .

(٤) الداجن : الشاة التى تألف البيوت ولاتخرج إلى المرعى .

(٥) من يعذرنى : من يقوم بعذرى إن كافأته على قبيح فعله ، ولا يلومنى ! — أو من ينصرنى .

إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى » .

فقام سعد بن معاذ الأنصارى ؛ فقال: يارسول الله ، أنا أعذرك منه ؛ إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .

قالت : فقام سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلا صالحاً ، ولكن احتملته الحمية[1] ، فقال لسعد : كذبت ! لعمر الله[2] لاتقتله ، ولا تقدر على قتله ، وقام أسيد بن حضير — وهو عم سعد — فقال لسعد ابن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيّان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخفّضهم[3] حتى سكتوا وسكت .

● قالت : فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، قالت : وأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوماً ، لا أكتحل بنوم ، ولا يرقأ لى دمع ، يظنان أن البكاء فالق كبدى .

● قالت : فبينما هما جالسان عندى ، وأنا أبكى . فاستأذنت علىّ امرأة من الأنصار . فأذنت لها . فجلست تبكى معى .

● قالت : فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

---

(١) احتملته الحمية أى : أغضبته .

(٢) لعمر الله : أى : وبقاء الله .

(٣) يسكنهم ويهون عليهم الأمر .

فسلم ثم جلس . قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل ماقيل قبلها . وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى .

• قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس . ثم قال : « أما بعد ياعائشة . فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله . وإن كنت ألممت بذنب ، فاستغفرى الله ، وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » .

قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، إنى والله لقد علمت ، لقد سمعت هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة ، لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى بريئة منه لتصدقنى ، والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبى يوسف ، قال : (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) .

• قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله يبرئنى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا يبرئنى الله بها .

• قالت : فوالله مارام[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا خرج

---

(١) أى : ما فارق .

أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه مايأخذه من البُرحاء[١] حتى إنه ليتحدّر منه الجُمان[٢] من العرق — وهو فى يومٍ شاتٍ — من ثِقل القول الذى ينزل عليه .

● قالت : فلما سُرِّى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سرى عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : « ياعائشة ، أما الله فقد برّأك » فقالت أمى : قومى إليه ، قالت : فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ؛ وأنزل الله تعالى : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . . . الآيات) .

● قالت عائشة : فلما أنزل الله تعالى هذا فى براءتى ، قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه — وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته وفقره — : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة — رضى الله عنها — ماقال ، فأنزل الله سبحانه وتعالى : (٢٤ : ٢٢ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكينَ والمهاجرينَ فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) ، قال أبو بكر رضى الله عنه : بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

● قالت عائشة : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمرى ، فقال : « يازينب ، ماذا علمت أو رأيت » ؟ ، فقالت : يارسول الله أحمِى سمعى وبصرى ، ما رأيت إلا خيراً ، قالت : وهى التى كانت تسامينى[٣] من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعصمها الله

---

(١) البرحاء : العرق من شدة ثقل الوحى .

(٢) الجمان : اللؤلؤ .

(٤) أى تضاهينى وتفاخرنى بجمالها ومكانتها عند النبى صلى الله عليه وسلم .

بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك .

* * *

وقبل أن ننهى الحديث عن « الإفك ، وأهله من المنافقين » نتأنّى قليلا ، لنلقى بعض النظرات على الحدث ، وعلى الآيات التى نزلت فيه :

ا — نظرات فى الحدث :

النظرة الأولى : ما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم توقف فى أمر « أم المؤمنين رضى الله عنها ، وسأل عنها ، وبحث ، واستشار ، وهو أعرف الناس بمنزلته عند ربه ، وأنه سبحانه منزه عن أن يجعل تحت رسوله وخليله وأكرم الخلق عليه امرأة خبيثة بغيًا ؟

وما بال الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل ما قاله فضلاء الصحابة : (سبحانك هذا بهتان عظيم) ؟

والجواب : أن هذا من الحكم الباهرة التى جعل الله هذا « الحديث » سببًا لها ، فهو امتحان وابتلاء للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، واقتضى تمام الامتحان أن يحبس الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً ؛ فلم ينزل عليه شىء فى أمر « الإفك وأصحابه » ! ! كذلك كان من تمام الامتحان أن توقف النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر « أمّنا » الطاهرة المبرّأة حتى نزل فيها ما نزل ، وبرّأها الله من فوق سبع سموات ! !

• وإنما حبس « الوحى » هذه الفترة المديدة ، حتى تنضج القضية ، وتتطلع قلوب المؤمنين إلى ما يوحيه الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم فيها ، فوافى الوحى أحوج ما كان إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ،

والصدّيق وأهله وأصحابه المؤمنون ، ، فوقع منهم أعظم موقع وأكرمه .

● ثم ـ هناك اعتبار آخر لتوقف النبي فى أمر «أم المؤمنين» رضوان الله عليها ، هو أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان المقصود بالأذى ، وهو الذى رميت زوجته : فلم يكن يليق أن يشهد ببراءتها ، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك قال : « من يعذرنى فى رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ والله ماعلمت على أهلى إلاّ خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى » !! فكان عنده من القرائن التى تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين ، ولكنه صبر أمام الامتحان ، وانتظر قضاء الله فيه .

● وهناك اعتبار ثالث ـ هو : أن الله ـ سبحانه ـ أحبّ أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته ، وأن يتولى ـ هو ـ سبحانه وتعالى الدفاع عن نبيه والرد على أعدائه المنافقين !

النظرة الثانية : لماذا لم يُقِمْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحد على عبد الله ابن أُبى بن سلول مع أنه هو الذى تولى كبره ؟ ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بمن صرّح بالإفك فحدوا ثمانين ثمانين ! ! ؟

وفى الجواب ـ أقوال :

● فقد قيل : إنما لم يقم رسول الله الحد على ابن سلول ، لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة ، والخبيث ليس أهلا لذلك ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة ، فيكفيه ذلك عن الحد .

● وقيل : إنه كان متمرساً على الإشاعات والأراجيف ، بحيث يلقى قالة السوء بأسلوب حذر حتى لا تنسب إليه ، أو تقوم بينة ضده ! ! وقد نجح فى توريط بعض المسلمين فانجرفوا فى تياره وما يشعرون ! !

● وقيل : الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو البينة ، وهو يقرّ بالقذف ، ولا شهد به عليه أحد ؛ فإنه إنما كان يذكر الإفك بين (عصبته) ومشايعيه ، ولم يشهدوا عليه .

وهناك أقوال أخرى ذكرها «ابن القيم» في كتابه «زاد المعاد في هدى خير العباد»[1] .

النظرة الثالثة : لما نزلت براءة عائشة ، قال لها أبوها : قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالت : « والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله » .

وهذا القول دليل على عظمة إيمانها وتوحيدها ، وإفرادها ربها بالحمد !!

وفي كلامها هذا إرضاء للرسول صلى الله عليه وسلم أيما إرضاء ، وهل أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلاّ لكي يقرّر هذا المعنى ويؤكده .

النظرة الرابعة : لاشك في أن الذين حملوا هودج عائشة رضي الله عنها ! كانوا من الأولياء . . بل من خيرة الأولياء !! ومع ذلك فقد اعتقدوا أن عائشة في الهودج ولم تكن فيه !!

ومن هنا نعلم ونفهم..أن أولياء الله الأحياء لا يعلمون الغيب !! فما بالك بأولياء الله الموتى !!

فكيف يدعى بعد ذلك « عباد الموتى » لأوليائهم المقبورين علم الغيب ، واستجابة الدعاء ، وإعطاء المدد ، والقدرة على تصريف الأمور ؟! .

النظرة الخامسة : وإذا رحنا نستعرض الشخصيات التي أصابها «الحدث» فإننا نجدها كما يلي :

---

(١) جـ ٢ ص ٢٨٤ .

• عائشة الصديقة ، فتاة حديثة السن فى نحو السادسة عشرة ، وضيئة عفيفة ، طيبة شريفة ، مسلمة نشأت فى حجر الإسلام منذ أيامها الأولى ، . . ثم هى ابنة الصديق ؛ نشأت فى كنفه الطاهر ، وزوج محمد سيد ولد هاشم . . وولد آدم ! ! يرميها المنافقون وهى غافلة !!

وتفاجأ بالخبر ... من أم مسطح .. فتتساءل مذهولة حائرة وَلْهى : سبحان الله !! وقد تحدث الناس بهذا ؟ وفى رواية أخرى تسأل: وقد علم به أبى؟ فتجيب أمها : نعم ، فتقول : ورسول الله - صلى الله عليه وسلم ؟ - فتجيبها أمها كذلك. نعم ! !

ويواجهها الرسول النبى الحبيب - صلى الله عليه وسلم - بقوله: « أما بعد!! فإنه بلغنى عنك كذا وكذا . . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله تعالى وتوبى إليه ؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه !! » .

• أبو بكر الصديق . . الرجل المسلم الأول ، الذى جنّد نفسه للدعوة منذ فجرها ، يُرْمَى فى عرضه ، فيقول : والله ما رمينا بهذا فى جاهلية ، أفترضى به فى الإسلام ؟ .

وحينما تقول له ابنته المريضة المحمومة : أجب عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

• أم رومان : التى شبهها النبى صلى الله عليه وسلم بالحور العين ، زوج الصديق ، وأمّ الصدّيقة ، تحاول أن تواسى ابنتها المفجوعة ، فتقول لها : « يا بنية ! هوِّنى على نفسك ! ! فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . . . » ! !

إنها تقول هذه الكلمات لمجرد المواساة . . ولتكفكف بها عبرات ابنتها ،

التى يكاد كبدها أن ينفلق من كثرة البكاء ! ! .

• صفوان بن المعطّل . . المسلم المجاهد ؛ الذى طعنه المنافقون فى عرضه وإسلامه . . ومع من ؟ مع زوجة نبيه صلى الله عليه وسلم ؟ !

يا لبشاعة الجرم ؟ ويا لوقاحة الاتهام ! ! .

ولا يملك صفوان إلا أن يقول فى مواجهة هذا الاتهام الصفيق :

« سبحان الله ! والله ما كشفت كتف أنثى قط » !

• ومن قبل هؤلاء جميعاً . . ومن بعد هؤلاء جميعاً ! ! . . رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يرمى فى طهارة فراشه ، وهو معلّم الناس الطهارة ؟ !

ويتحدث الناس فى المدينة شهراً كاملا ، بحديث الإفك بين مؤيدين ومعارضين ، وهو صلى الله عليه وسلم ـ ساكت لا يجيب ، ولا يملك أن يضع حداً لهذه المقالة المنافقة !!

ثم ماذا ؟ .

ثم تنزل الآيات برداً وسلاماً ، على هذه القلوب التى أمضّها الحزن ، وأقضّ مضاجعها الألم !!

* * *

ب — نظرات فى الآيات :

النظرة الأولى : (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) الإفك : أعظم الكذب ، والعصبة : من الثلاثة إلى العشرة : وهم جماعة من المنافقين تواصوا باختلاق هذه الشائعة وإذاعتها عداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولبيته ولدينه :

النظرة الثانية : (لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم) الشرّ: ما زاد ضرّه على نفعه ، والخير : مازاد نفعه على ضرّه . وليس فى الدنيا خير لا شر فيه ، ولاشر لاخير فيه ، وإنما ذلك فى الآخرة وحدها ، فالجنة هى الخير الذى لاشرّ فيه ، والنار هى الشر الذى لا خير فيه .

● والبلاء النازل على أولياء الله وأصفيائه وأحبائه ؛ إنماهو خير، وإن خالطه بعض الضرر من الألم العارض القليل فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهم الخير الكثير ، والأجر العظيم .

ولهذا قال الله تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم ولعائشة وأهلها ،ولصفوان: (لا تحسبوا شرًّا لكم بل هو خير لكم) وما ذلك إلا لرجحان جانب النفع والخير ، على جانب الضرّ والشر !!

النظر الثالثة : (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً) .

(ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) فى الآية الأولى تحضيض على الظن الحسن .

وفى الآية الثانية ؛ نهى عن الوقوع فى أعراض الآخرين .

النظرة الرابعة :(لولا إذْ سمعوه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا : هذا إفك مبين) .

والمعنى : أنه كان ينبغى على المؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا الأمر على أنفسهم ؛ فإن كان ذلك يبعد فيهم ، فهو فى عائشة وصفوان أبعد .

وروى أن هذا الفهم السديد وقع من أبى أيوب الأنصارى وامرأته ،

وذلك أنه دخل عليها . فقالت له : يا أبا يوب ، سمعت ماقيل ؟ فقال : نعم ، وذلك الكذب ! ! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك ؟ قالت : لا والله !! قال : فعائشة والله أفضل منك : قالت أم أيوب : نعم ! !

النظرة الخامسة : (إذ تلقّونه) قرأ محمد بن السميقع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف من الإلقاء (تُلْقُونه) .

وقرأت عائشة رضى الله عنها ـ وهى أعلم الناس بهذا الأمر (إذ تَلِقُونَهُ) ـ بفتح التاء ، وكسر اللام : وضم القاف ـ من الولق وهو الكذب .

النظرة السادسة : (إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) فى هذا القول الكريم تحريم نوعين من الكلام :

النوع الأول : القول بالباطل : (إذ تلقونه بألسنتكم) .

النوع الثانى : القول بلا علم : (وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم) .

النظرة السابعة : (هذا بهتان عظيم) البهتان : أن يقال فى الإنسان ماليس فيه ، والغيبة : أن يقال فى الإنسان ماهو فيه .

النظرة الثامنة : (يعظكم الله أن تعودوا لمثله بداً) قال هشام بن عمار : سمعت مالكا يقول : من سبّ عائشة قتل ؛ لأن الله تعالى يقول : (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين) فمن سبّ عائشة فقد خالف القرآن ، ومن خالف القرآن قتل ، وذلك لأن أهل الإفك رموا عائشة ـ المطهّرة ـ بالفاحشة فبرّأها الله تعالى ، فكل من سبّها بما برأها الله منه فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو كافر ! !

النظرة التاسعة : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا

لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) أخرج ابن أبى حاتم عن خالد بن معدان ، قال : من حدَّث بما أبصرت عيناه ، وسمعت أذناه ، فهو من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا .

وأخرج عن عطاء ، قال : من أشاع الفاحشة فعليه النكال ، وإن كان صادقاً .

وأخرج عن عبد الله بن زكريا . أنه سئل عن هذه الآية فقال : هو الرجل يتكلم عند الرجل فيشتهى ذلك ولا ينكر عليه .

النظرة العاشرة : (يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) وخطوات الشيطان مسالكه ومذاهبه ، وواحدة الخطوات : خطوة ، وهو مابين القدمين !

النظرة الحادية عشرة : فى قوله تعالى : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) .

• النهى عن الحلف أن لايفعل خيراً .

• وأن من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير ، ثم ليكفر عن يمينه .

النظرة الثانية عشرة : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) .

قال الزمخشرى : « لو قلّبت القرآن كله ، وفتّشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ فى شىء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله عليها ، ولا نزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد ، والعتاب البليغ ، والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه — ما أنزل فيه ، على طرق مختلفة ، وأساليب مفتنة ، كل واحد منها كاف فى بابه . ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث يعنى قوله تعالى : (إن الذين يرمون المحصنات) إلى قوله : (هو الحق المبين) لكفى بها ؛ حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعاً ، وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة ، وبأن ألسنتهم[1] وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا ، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذى هم أهله ، حتى يعلموا عند ذلك أن الله هو الحق المبين .

فأوجز فى ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرر بما لم يقع فى وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ماهو دونه فى الفظاعة » .

النظرة الثالثة عشرة : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم).

قالوا : إن معناها : النساء الخبيثات للرجال الخبيثين ، والرجال الخبيثون للنساء الخبيثات ، والنساء الطيبات للرجال الطيبين ، والرجال الطيبون للنساء الطيبات . !! ولهذا قال من قال من السلف : « ما بغت امرأة نبى قط !! » .

وقال مجاهد وابن جبير وعطاء وأكثر المفسرين[2] ، المعنى : الكلمات

---

(١) إنما ذكر الله سبحانه وتعالى شهادة « الألسنة » هنا ، مع أنه نفاها فى مثل قوله تعالى : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم » — لأن جريمة القذف تكون باللسان ، وتتلقى باللسان ، فلزم أن يشهد اللسان فيها يوم القيامة .

(٢) القرطبى جـ ١٢ ص ٢١١

الخبيثات للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من الكلمات ، وكذا الكلمات الطيبات للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من الكلمات ، قال النحاس فى كتابه « معانى القرآن » : وهذا من أحسن ماقيل فى الآية !! ودل على صحة هذا القول ؛ قوله تعالى : (أولئك مبرأون مما يقولون) .

* * *

● و ... بقيت نظرة أخيرة .. نتأمل بها وجه القول الكريم : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) .

فإنها « المحور » الذى يدور حوله الحدث كله ؛ بآلامه ، وتطلعاته ، وتساؤلاته ، وبُشْرَياته ، ونفاقه ، وخزيه ! !

و « الغاية » التى تهدف إليها الآيات كلها ، بمواعظها ، وزواجرها ، وعتابها ، وعقابها ، وتوجيهاتها ! !

● إن الحادثة حدثت . .

وإن الآيات نزلت . .

من أجل أن يتعلم المسلمون أن الأعراض « مصونة » لاتمس ، « مكنونة » لاتمتهن !

من أجل أن يتعلموا : أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا - على أى وجه من الوجوه ، وبأى أسلوب من الأساليب - لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ! !

فالذين يقدّمون « الفن العارى » . . ! !

والذين يكتبون « الأدب المكشوف » . . ! !

والذين يروّجون « للدعارة الفكرية » . ! !

والذين ينادون « بالحرية الجنسية » . . ! !

والذين يصرّون على أن يؤدى جسد المرأة « ضريبة الفن » ! !

كل هؤلاء . . .

من الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . . ! ! !

فى سورة العنكبوت

(٢٩ : ١٠ ، ١١ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ، وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين) .

* * *

● تقول سورة العنكبوت فى افتتاحها : (الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

فهى تقول للناس أجمعين : إن الإيمان ليس شيئاً هيناً ، وإن طريق المؤمنين ليس مفروشاً بالورود والرياحين !! وإن « الفتنة » بالخير ، أو بالشر ، أو بهما معاً . هى الامتحان الإلهى الذى يدخله المؤمن ؛ فإن شكر فى السراء ، وصبر فى الضراء ، وثبت فى البأساء ، فقد فاز . وأما إن تهاوى ، وطار قلبه شعاعاً عند أول صدمة فقد خسر خسراناً مبيناً ! !

● وقد عدَّد القرآن الكريم أنواع الفتن ؛ فإذا بها كثيرة ، أذكر منها :

— فتنة الشيطان : (٧ : ٢٧ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان) .

— فتنة المال والولد : (٨ : ٢٨ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) .

— فتنة الشر والخير : (٢١ : ٣٥ ونبلوكم بالشر والخير فتنة) .

— فتنة الابتداع : (٢٤ : ٦٣ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة) .

— فتنة الناس : (٢٥ : ٢٠ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة . . أتصبرون ؟)

— فتنة الإيذاء فى الله : (٢٩ : ١٠ فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) .

— فتنة الهزيمة : (٣٣ : ١٤ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وماتلبثوا بها إلا يسيراً) .

— فتنة العلم : (٣٩ : ٤٩ قال : إنما أوتيته على علم عندى بل هى فتنة ، ولكن أكثرهم لايعلمون) .

● وقد تكرر لفظ الفتنة فى القرآن الكريم ستين مرة ، وتكرر لفظ الابتلاء سبعاً وثلاثين مرة ، أما لفظ الامتحان فلم يرد إلا مرتين ! !

● وقد روى أحمد بن حنبل فى مسنده حديث سعد الذى يقول فيه : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أشد بلاء ؟ فقال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، ويبتلى الله الرجل على حسب دينه ؛ فإن كان رقيق الدين ابتلى على حسب ذلك ، وإن كان صلب الدين ابتلى على حسب ذلك ، ومايزال البلاء بالرجل حتى يمشى على الأرض وماعليه خطيئة » .

● وقال البغوى : حدثنا أحمد بن حنبل عن معاذ بن جبل ، قال : « إنكم لم تروا إلا بلاء وفتنة ، ولن يزداد الأمر إلا شدة ، والأنفس إلا شحاً » وقال معاذ : « لن تروا من الأئمة إلا غلظة ، ولن تروا أمرا يهولكم ويشتد عليكم إلا حضر بعده ماهو أشد منه » .

* * *

قال البغوى : « سمعت أحمد يقول : اللهم رضنا » ! !

ونحن نقول :

— « اللهم رضنا » ! ! !

فى سورة الأحزاب

حـم . . . لا ينصرون :

(٣٣ : ٩-٢٧ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذا زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديداً .

وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون : إن بيوتنا عورة وماهى بعورة إن يريدون إلا فراراً ، ولودخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها ، وماتلبثوا بها إلا يسيراً ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا ، قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذاً لاتمتعون إلا قليلا ، قل : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ، قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يُغشى عليه من الموت ؛ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحَّة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيراً ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يودوا لوأنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا .

لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً .

ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما . ؛ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء ، أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما .

وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديراً) .

* * *

● تعرَّضت « سورة الأحزاب » للحديث عن المنافقين ، فى أكثر من موضع ، وأكثر من مناسبة ؛ فقد افتتحت بذكرهم . وحذّرت النبى صلى الله عليه وسلم من شرهم ، وختمت بالحديث عنهم ، والتعريف بمصيرهم .

فكان افتتاحها كما يلى : (يا أيها النبى اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين) .

وكان ختامها كما يلى : (٣٣ : ٧٢ ، ٧٣ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا ، ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما) .

وفى أثنائها يتحدث الله سبحانه وتعالى عن موقف المنافقين من زواج

النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضى الله عنها ، حيث يقول تعقيباً على هذا الموقف : (٣٣ : ٤٨ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) .

وفيها تهدد الله المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى المدينة وتوعدهم فقال : (٣٣ : ٦٠ — ٦٢ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ؛ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

● وفيها حديث تفصيلى عما جرى من المنافقين فى غزوة الأحزاب من خوف ، وجزع ، وتثبيط ، وبث الشائعات والأراجيف ، والانهيار النفسى !!

وفى هذا الموقف نزلت الآيات : (٩ — ٢٧) وهى الآيات التى صدرت بها هذا البحث ، وقبل أن نقف بين يدى الآيات لنقتبس منها العظة ، ونلتمس منها العبرة ؛ نلتقى بأحداث « غزوة الأحزاب » و « غزوة بنى قريظة » .. فمن خلال عرض أحداث « الغزوتين » ؛ نتعرف على كثير من المعانى التى جاءت بها الآيات .

* * *

(١) غزوة الأحزاب :

● كانت فى شوال من السنة الرابعة .

● وقال رواة السنة ، والسيرة ، أنه :

كان من حديث الأحزاب (الخندق) أن نفراً من اليهود منهم سلام بن مشكم ، وحيى بن أخطب ؛ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم

إلى حرب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقالوا لهم : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش: يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أدينا خير أم دينه؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وإنكم أولى - بالحق منه ، فهم الذين أنزل الله فيهم :(٤ : ٥١ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) .

فلما قالوا ذلك لقريش سَرَّهم ، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه .

• فخرجت قريش وقائدهم أبوسفيان بن حرب،وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن ، وخرجت مرة وقائدها الحارث بن عوف ، وخرجت أشجع وقائدها مسعر بن دخيلة .

فلما سمع بهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ضرب الخندق على المدينة ، وعمل فيه ترغيباً للمسلمين فى الأجر ، وعمل فيه المسلمون ،فدأب فيه ، ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —وعن المسلمين فى عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يتعللون بالضعف عن العمل ،أو يتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله —صلى الله عليه وسلم— ولا إذن. أما المسلمون فكان الرجل منهم إذا نابته نائبة من الحاجة التى لابد منها ذكرها لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — واستأذن فى اللحوق بحاجته فيأذن له : فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمل رغبة فى الخير ، واحتساباً له .

فأنزل الله تعالى فى المؤمنين : (٢٤ : ٦٢ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين

يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ؛ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) .

وأنزل الله تعالى فى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ، ويذهبون بغير إذن : (٢٤ : ٦٣ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وكان الذى أشار بالخندق سلمان الفارسى رضى الله عنه ، فقال : يارسول الله ، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، ولم تكن العرب تعرفه قبل ذلك .

● وكان عدد جيش المشركين عشرة آلاف .

وكان المسلمون ثلاثة آلاف . قال ابن حزم : تسعمائة فقط[1] .

● وفى البخارى عن البراء بن عازب ، قال : رأيته صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنا الغبار جلدة بطنه — وكان كثير الشعر — فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب :

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

وفى حديث سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى أنه صلى الله عليه وسلم حين ضرب فى الخندق ، قال :

---

(١) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص ٢٨٢ ، وقد عقب مؤلف الكتاب على رأى ابن حزم بقوله : « وهو الصحيح » .

بسم الإله ، وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا

فهذا ربنا ، وحب دينا

وقد جاء فى الصحيح عن جابر ، قال : إنا يوم الخندق نحفر فعرضت لنا كدية شديدة ـ وهى بضم الكاف : القطعة الصلبة ـ فجاءوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق ،فقام وبطنه معصوب بحجر (١) ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً . فأخذ النبى — صلى الله عليه وسلم — المعول فضرب فعاد كثيباً أهيلا (أى صار رملا يسيل ولا يتماسك) .

وقد وقع عند أحمد والنسائى زيادة حسنة بإسناد حسن من حديث البراء قال : « لما كان يوم الخندق عُرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء وأخذ المعول ، فقال : بسم الله ، ثم ضرب ضربة وقال : الله أكبر !! أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأنظر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية ، فقطع آخر ،فقال : الله أكبر !! أعطيت فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن ، ثم ضرب الثالثة فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ، فقال : الله أكبر !! أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى » .

● وقد أقاموا — فى عمل الخندق — شهراً .

● قال ابن إسحاق : وخرج عدو الله حيى بن أخطب النضيرى حتى أتى كعب ابن أسد صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم ، وكان قد وادع رسول الله صلى الله

---

(١) لعلها الحجز ـ بالزاى المعجمة ـ : الحزام ، وهو الصحيح الذى يمكن تقبله ، أما أن يكون المقصود : الحجر ـ بالراء المهملة ـ فهو غير مقبول ، وغير معقول . ولعله تصحيف من الناسخ !!

عليه وسلم — على قومه ، وعاهده على ذلك ؛ فلما سمع كعب بحيي أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه حيي : ويحك يا كعب افتح لى !! ، قال : ويحك يا حيي إنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمداً ، وإنك لست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاء وصدقا! !. قال :ويحك! افتح لى أكلمك .. ومازال به حتى فتح له ، قال: ويحك يا كعب ، جئتك بعز الدهر : وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من دومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحد؛ قد عاهدونى وعاقدونى ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .قال كعب : جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد أريق ماؤه ، فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي ! فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء ،فلم يزل حيي يفتله فى الذروة والغارب؛ وأعطاه عهداً وميثاقاً إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه حصنه ، وأن يشاركه مصيره ! ! فنقض كعب عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ! !

● وعظم البلاء بالمسلمين ، واشتد الخوف ، وكانوا كما قال الله تعالى : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً)

وابتدأ المنافقون يتحدثون ويتحركون ، فقال بعضهم : قد كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر ؛ وإن أحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !! فأنزل الله فيهم: (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) .

وقال بعضهم : يا رسول الله ! ! إن بيوتنا عورة ، وإننا نخشى عليها من العدوا ، فائذن لنا فى الرجوع إلى ديارنا فإنها خارج المدينة ، فأنزل الله فيهم : (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق

منهم النبي يقولون : إن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فراراً)

● وهكذا حوصر المسلمون بين عدوين ؛ المشركون ، واليهود . وكان هناك عدو ثالث ؛ يثير الفتنة ، ويبث الوهن ، ويشيع الأراجيف ، وربما كان أشد ضراوة من العدوين الآخرين ؛ لوضوحهما وخفائه ؛ وهذا العدو الثالث : هم المنافقون .

ووسط هؤلاء الأعداء الثلاثة ، زلزل المؤمنون زلزالا شديداً ، وراح الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه يدعون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكشف البلاء الذى نزل والكرب الذى حلّ .

فى البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى قال : « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب فقال : اللهم منزل الكتاب ؛ سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » .

وروى أحمد عن أبى سعيد قال : قلنا : يارسول الله هل من شىء نقوله ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ، قال : « نعم اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » قال : فضرب الله وجوه أعدائنا بالريح !!

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان ليأتيه بخبرهم ، فوجدهم قد تهيأوا للرحيل ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره .

فأصبح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال .

وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم يردد هتافه المنتصر :

« الحمد لله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » !!

* وكان شعار[1] المسلمين فى هذه الغزوة « حـم . لا ينصرون » ..

* * *

ب ـ غزوة بنى قريظة :

● ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة ، وذلك ليؤدبهم على نقضهم للعهد ، فى أحرج المواقف. فقد ثبت فى الصحيح من حديث عائشة وحديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى لم يرد منا ذاك ؛ فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحداً منهم .

● وقد حاصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنى قريظة بضعاً وعشرين ليلة : حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب ؛ فطلبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر ، وكان حليفاً لهم ، فأرسله ، فلما أتاهم ، قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ؛ فرق لهم ، وقالوا : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه : إنه الذبح ـ قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ! ! ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح من مكانى هذا حتى يتوب الله علىّ مما صنعت ، وعاهد الله أن لا يطأ أرض بنى قريظة أبداً ، وأن لا يُرى فى بلد خان الله ورسوله فيه أبداً !!

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ـ وكان قد استبطأه ـ ، قال : أما لو جاءنى لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من

---

(١) وهو ما يسمى بلغة العصر : « كلمة السر » .

مكانه حتى يتوب الله عليه ، فنزلت توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم إطلاقه بيده الكريمة .

● ثم استسلمت بنو قريظة ، وطلبوا تحكيم سعد بن معاذ ؛ فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد ليؤتى به ليحكم فى بنى قريظة ؛ فأتى به على حمار قد وطىء له بوسادة أدم ، وأحاط به قومه من الأوس — حلفاء بنى قريظة — وهم يقولون : يا أبا عمرو !! أحسن فى مواليك ، فإنما ولاك رسول الله ذلك لتحسن فيهم ، فقال : لقد أبى الله لسعد إلا أن لا تأخذه فى الله لومة لائم !!

ثم قال سعد : إنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم — : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات !!

● ثم أمر بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحفرت لهم الخنادق ، ثم أمر بهم فضربت أعناقهم فى تلك الخنادق ، وقتل معهم يومئذ حيى بن أخطب والد أم المؤمنين صفية رضى الله عنها !! وكانوا بين الستمائة إلى السبعمائة !!

وبهذا تطهرت المدينة من الوجود اليهودى المتآمر !!

* * *

وقفة :

● هذه هى غزوة الأحزاب وبنى قريظة بأسلوب البشر ... !

والآن ؛ ننتقل لنرى الغزوة فى أسلوب القرآن الكريم ... !

وشتان .. شتان بين حديث الله .. وحديث البشر !!

● تصور الآيات الرعب الهائل الذى نزل بالمسلمين ؛ حينما انحط عليهم

أعداؤهم من كل سبيل : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) وقد بدا الهلع على الوجوه ، واستقر فى القلوب : (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) ! !

• وتتحدث الآيات عن الخوف الشديد الذى عاناه المسلمون ، فتقول : (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) ! !

وقد بلغ من خوف المسلمين وزلزالهم ؛ أن طليعتين للمسلمين التقتا ليلا ، ولا يشعر بعضهم ببعض ، ولا يظنون إلا أنهم العدو ، فكانت بينهم جراحة وقتل ، ثم نادوا بشعار الإسلام : (حم ... لا ينصرون) فكفَّ بعضهم عن بعض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لما علم بما جرى : « جراحكم فى سبيل الله ، ومن قتل منكم فإنه شهيد » ! !

• وبرغم هذا « الزلزال النفسى الهائل » . . وقف المسلمون صامدين صابرين (ولما رأى المؤمنون الأحزاب ، قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما) .

أما المنافقون ؛ فقد طارت قلوبهم شعاعاً ، وراحوا يدبرون حيَل الفرار ، ويتهمون الله ورسوله : (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) ! !

• ولم يكتف المنافقون بما هم فيه من جبن وخور ونكوص ؛ بل حاولوا « استقطاب » من حولهم من الناس : (يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) ! !

• إن فى المنافقين طبيعة « النعام » . . فالنعامة لا تسابق فى الفرار ! ! و « النعامة » تخفى رأسها فى التراب ، وتظن أنها بذلك قد أخفت جسمها الهائل ! ! ثم إن للنعامة قلباً جباناً خائراً ! !

وهكذا المنافقون : (إن يريدون إلا فراراً) !! .

ثم هم يخفون هذه الحقيقة ـ كما تخفى النعامة رأسها ـ ببعض التعِلَّات الواهية !! . (إن بيوتنا عورة !!) .

ثم يعيشون ويفكرون ويعملون بقلب « نعامة » !!

● وتفضح الآيات الواقع النفسى الذى يعيشه المنافقون ـ فهم :

● (لو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيراً) !!

(فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) .

(فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) .

(أشحه عليكم) (أشحة على الخير) .

● وحينما يرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، ويكف أيديهم عن المؤمنين ؛ ويكفيهم أمر القتال ؛ فإن المنافقين لا يصدقون ما جرى ، إن أشباح العدو تلاحقهم فى كل مكان :

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) .

إن مجرد ذكر «الأحزاب» يدك وجودهم دكاً ، ويمزق كيانهم تمزيقاً!!

إنهم يتمنون أن يتوهموا فى أعماق البادية ؛ يتحملون جوعها وضياءها ، ولا يقابلون هؤلاء الأحزاب ، ولا يقاتلون فى سبيل الله .

(وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب) .

إن المنافقين ـ كما تصورهم الآيات ـ مثبطون معوقون ، لا يصلحون للجهاد ، ولا لأى تضحية : (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) !!

* * *

ثم تقول الآيات : (وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) .

وإنما ردهم الله من أجل عباده المؤمنين ، وجنده المخلصين ؛ لا من أجل المنافقين والمرجفين ومرضى القلوب ! !

• أما الخائنون الغادرون من اليهود ؛ فلم تعصمهم بروجهم المشيدة ، من بأس الله ؛ إذ قذف سبحانه فى قلوبهم الرعب الجبان ، فغشى أبصارهم ، وانساب فى قلوبهم ؛ يخنق فيها كل إحساس بالأمل والشجاعة والحياة ؛ فاستسلموا بدون مقاومة ، ثم ألقوا رءوسهم الكاذبة الخاطئة المتآمرة الغادرة فى حفرة من حفر الأرض ... ثم فى حفرة من حفر النار ...

(وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً) !!

* * *

وصدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

من سورة الفتح

ميزان القوى :

(الآيات : ١ — ١٧ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً . هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ولله جنود السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيما ، ويعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، الظانّين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيراً ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيما ، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما .

سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزُين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيراً ، ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيما .

سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذروها نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل ، فسيقولون : بل تحسدوننا ، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا .

قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ؛ فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ، ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومن يتولَّ يعذبه عذاباً أليما) .

* * *

● نحن الآن بعد غزوة الأحزاب بعام واحد ! ! وهذه آيات الله تحمل للمسلمين بشائر الفتح !! .

ولقد كان يوم الأحزاب — كما أسلفت — يوم زلزال شديد ، أصاب قلوب المؤمنين برجفة ، أو كما قال الله تعالى : (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً) .

فما أعظم الفرق بين عام ، وعام !!

ما أعظم الفرق بين ماجرى فى العام الخامس للهجرة ، وما يجرى فى العام السادس للهجرة ... !

إن الذى جرى فى العام الخامس للهجرة ؛ هو « حصار » المدينة بعشرة آلاف مقاتل مشرك !!

والذى يجرى الآن فى العام السادس للهجرة ؛ هو « حصار » مكة بألف وأربعمائة مجاهد مسلم !!

فى عام واحد ...

تحول المسلمون من « محاصَرين » إلى « فاتحين » ! !

وتحولت قلوبهم من « الزلزال » — وهم فى بيوتهم — !! إلى « السكينة » وهم على مشارف بيوت عدوهم — : (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار) !!

كيف كان هذا ؟

وكيف يمكن أن يكون ؟

إن المقاييس البشرية المادية كلها !! — التى لا تحسب لسنة الله حساباً — ؛ تعجز عن استيعاب هذا الذى كان !! ولا تكاد تصدقه !! لأن المقاييس البشرية المادية ؛ مرتبطة بمواضعات خاصة تتناسى فيها « قدرة الله » و « سنته » . . وكيف أن « النصر من عنده » وأن « ميزان القوى » بيده ! !

* * *

لقد قدر « المنافقون » — ميزان القوى — بأسلوب بشرى مادى بحت ، فوجدوا أن قوة صغيرة ، تقتحم على قوة كبيرة بلادها وديارها !! لا يمكن أن تعود أبداً ... ولو عادت فلن تكون سالمة ولا غانمة !!

ولهذا أصرّوا على عدم المشاطرة فى هذه المخاطرة .. إيثاراً للسلامة وإبقاء على حياتهم ، وحرصاً على نجاتهم . ويكشف الله نواياهم بقوله : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ...) !!

• ويقول الأسلوب البشرى المادى ... !!

إن القوة « المهاجمة» لابد أن تكون أقوى من القوة « المدافعة » ، مرتين على الأقل ! ! !

فما بال النظرية هنا معكوسة تماماً .. إن القوة « المهاجمة » لا تعادل عشر معشار .. القوة « المدافعة » ! !

إنها « المعجزة » .. إنها « المعجزة » .

* * *

إن الحساب البشرى المادى[1] .. ـ عند الله ـ لا يعدو أن يكون «ظناً » وأحياناً « ظناً سيئاً » (وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً) !!

والحساب البشرى المادى .. قد ينهزم أمام رؤيا يراها نبى .. (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون) !

وهكذا تحولت الرؤيا — بقدرة قادر — إلى فتح .. وفتح قريب مبين ، ونصر عزيز : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) (وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

• ونحن مع هذا « الفتح » على ميعاد ..

نروى « قصته » كما رواها الثقاة من رواة « سيرة » الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ثم نتعرف على « مراكز المنافقين » من خلال هذه القصة ..

* * *

---

(١) أعنى بالحساب البشرى المادى : الحساب الذى لا يضع فى الاعتبار عناية الله ورعايته ، وليس معنى هذا أننى أطالب بإهمال الحساب البشرى المادى ، فذلك خطأ فاحش لا أقول به ولا أذهب إليه . بل إننى أطالب بأن يوضع فى الاعتبار « الحساب » الروحى ـ إن صح هذا التعبير ـ إلى جانب الحساب المادى !!!

الحديبية :

• كانت فى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .

• وسببها : أنه — صلى الله عليه وسلم — أرى فى المنام أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام ، وأخذ مفتاح الكعبة ، وطافوا واعتمروا ، وحلق بعضهم ، وقصر بعضهم ؛ فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك .

فأخبر — صلى الله عليه وسلم — أصحابه أنه معتمر ، فتجهزوا للسفر ، واستنفر العرب ، ومن حوله من البوادى ليخرجوا معه ، وهو لا يريد الحرب ، ولكنه يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو صدود عن البيت ، فأبطأ كثير من الأعراب المنافقين ، الذين قال الله تعالى فيهم : (٤٨ : ١١ — ١٦ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنين إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا . . الآيات) .

• وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين غرة ذى القعدة من السنة السادسة ومعه زوجته أم سلمة فى ألف وأربعمائة ! ولم يخرج معه بسلاح إلا سلاح المسافر : السيوف فى القرب . . فلما كان بذى الحليفة قلد الهدى ، وأشعر ، وأحرم منها بعمرة .

• وسار النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت راحلته ، فقال الناس : حل حل ، فألحت فقالوا : خلأت

القصواء[١] . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما خلأت القصواء وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : «والذى نفسى بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » . ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية .

● وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال : يارسول الله ! ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته بها ، وإنه مُبلغ ما أردت ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ؛ فأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتى رجالا مؤمنين بمكة ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها الإيمان .

● فانطلق عثمان ، فمرَّ على قريش ببلدح - موضع قرب مكة - فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً . فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحَّب به ، وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء مكة .

● وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون ! !

● وبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن عثمان قد قتل فدعا إلى

---

(١) خلأت - كما تقول للدابة : حرنت - ولا يقال : خلأت إلا للناقة .

البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه ، وقال : هذه عن عثمان .

● وقد حدثت حادثتان من حوادث النفاق ، ينبغى أن نتأملها : الحادثة الأولى : أنه فى أثناء وجود النبى — صلى الله عليه وسلم — بالحديبية — وقبل التصالح — بعثت قريش إلى عبد الله بن أبى : « إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل » فقال له ابنه عبد الله : يا أبت ! أذكرك الله ألا تفضحنا فى كل موطن ؛ تطوف ، ولم يطف رسول الله ! فأبى حينئذ ، وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله »[١] .

ومعنى هذه الحادثة : ● أن قريشاً لم ترسل إلى «عبدالله بن أبى »بالذات إلا لعلمها أنه يسير على منوالها فى عداء محمد ودعوته . ● وإنما لم يلبِّ عبدالله هذه الدعوة ؛ لأنها عمل مفضوح لا وزن له ، وستترتب عليه أضرار شتى !!

الحادثة الثانية : قال عنها سلمة بن الأكوع : بينما نحن جلوس قائلون[٢] ، إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عمر بن الخطاب : «البيعة .. البيعة » فسرنا إلى رسول الله وهو تحت الشجرة ، فبايعناه ، وبايعه الناس على عدم الفرار ، وأنه إما الفتح ، وإما الشهادة ، ولم يتخلف منا أحد إلا الجد ابن قيس[٣] ، قال : لكأنى أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته ، يستتر بها من الناس ! !

* * *

(١) ص ١٢٤ النفاق والمنافقون للأستاذ إبراهيم على سالم .

(٢) من القيلولة وهو وقت الظهيرة .

(٣) الجد بن قيس أحد المنافقين ، وقد تقدم ذكر بعض مواقفه فى سورة التوبة ، وهو الذى قال الله فى شأنه : (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) .

● ولما تمت « بيعة الرضوان » رجع عثمان ، فقال له المسلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ! ! فقال : بئس ما ظننتم بى !! والذى نفسى بيده لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بالحديبية ماطفت بها حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ! ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت !! فقال المسلمون : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً !

● فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى ـ فى نفر من خزاعة ـ وكانوا عيبة نصح[1] رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أهل تهامة ، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى ، نزلوا أعداد مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل[2] وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا لم نجىء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإن أبوا إلا القتال ، فوا الذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره !! قال بديل : سأبلغهم ما تقول :

● ثم أرسلت قريش سهيل بن عمرو ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم قادماً ، قال : قد سهل لكم من أمركم ، فقال : هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً فدعا الكاتب فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل :

---

(١) يعنى خاصته وموضع نصحه ، كنى بها عن القلوب والصدور التى هى مواضع النصح ، تشبيها لها بالعياب التى يستودع فيها الثياب .

(٢) العوذ : التى لم تلد ، والمطافيل : ذوات الأطفال . وعلى هذا يقتضى أن يكون النص : العوذ والمطافيل .

أما الرحمن ، فوالله ماندرى ماهو ؟ ولـكن : اكتب باسمك اللهم ، كما كنت تـكتب ، فقال المسلمون : والله لانـكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولـكن اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنى رسول الله ، وإن كذبتمونى ، اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به ، فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أننا أخذنا ضغطة ، ولـكن لك من العام المقبل . فـكتب .

• فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فقال المسلمون : سبحان الله ! ! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ ! !

• واصطلحا :

— على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض .

— وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليهم .

— وأنه بيننا عتيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال .

— وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد من العرب وفى عهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، (فتواثبت خزاعة ، فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، وقالوا : نحن فى عقد قريش وعهدهم) .

— وأن يرجع محمد فى عامه هذا فلا يدخل مكة ، وإذا كان عام قابل ، خرجت قريش عن مكة ، فدخلها بأصحابه ، فأقروا بها ثلاثا ، معهم سلاح الراكب السيوف فى القرب .

● وبينما هم كذلك ؛ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده ، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: يامحمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال : إذاً والله لا أصالحك على شىء أبداً ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فأجره لى ، قال : ما أنا بمجيره لك ، قال : بلى فافعل ، قال : ما أنا بفاعل ، قال مكرز : بل قد أجرناه لك . قال أبو جندل : يامعشر المسلمين أرد إلى المشركين ، وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً فى الله . فقام سهيل إلى سمرة فأخذ منها غصناً وضرب به وجه أبى جندل ضرباً رق عليه المسلمون وبكوا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً ! ! إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك عهداً وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم ! !

فوثب عمر بن الخطاب مع ابى جندل يمشى إلى جنبه ويقول : اصبر أبا جندل فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى قائم السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، ولكن الرجل ضَنَّ بأبيه . وقد روى عن أبى جندل أن الذى منعه حرصه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا الضنّ بأبيه ! !

● وعند البخارى : قال عمر بن الخطاب : فأتيت نبى الله فقلت : ألست نبى الله حقاً ؟ قال : بلى . قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى

رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصرى ! !

• فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه قوموا فانحروا ، ثم احلقوا .. فوالله ماقام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ! ! فدخل على أم سلمة ، فذكرلها مالقى من الناس فقالت له أم سلمة : يانبى الله ! اخرج .. ثم لاتكلم أحداً حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج فلم يكلم أحداً حتى فعل ذلك ، فلما رأوا ذلك ، قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما ! !

عمرة القضاء :

وفى ذى القعدة من سنة سبع خرج صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمراً ، هو وأهل الحديبية .. ! ولما دخل المسلمون مكة خرجت رءوس الكفر منها ، لئلا ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أصحابه رضى الله عنهم غيظاً وحنقاً ، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فقد جلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فدخلها عليه الصلاة والسلام وبين يديه أصحابه يلبُّون ، وهو راكب ناقته القصواء التى كان يركبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصارى آخذ بزمامها ، وهو يقول :

باسم الذى لادين إلا دينه ... باسم الذى محمد رسوله
خلوا بنى الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله ... ضربا يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله ... قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله ... بأن خير القتل فى سبيله

يارب ! ! إنى مؤمن بقيله

الفتـــح :

● ذلك هو الفتح الذى نزلت فى شأنه « سورة الفتح » كما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه وغيره ، أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وروى البخارى عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية .

وروى الإمام أحمد عن مجمع بن جارية الأنصارى رضى الله عنه قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها ؛ إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجنا مع الناس نرجف ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) .

قال : فقال رجل[1] من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أى رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم:« إى والذى نفسى بيده إنه لفتح » رواه أبو داود فى الجهاد .

ويبين الزهرى معنى كون صلح الحديبية فتحاً — فيقول :

لما كانت هدنة الحديبية ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد فى الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل فى تينك السنتين [بين صلح الحديبية وفتح مكة] مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر !

● قال ابن هشام ، والدليل على قول الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) فى زاد المعاد أن القائل هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وسلم، خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة — فى قول جابر بن عبدالله — ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف !

* * *

● هذه رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم تتحقق !

● وكان « عقد الهدنة » هو مظهر هذا الفتح ومخبره ، . . ولكن كثيراً من المسلمين ، دققوا النظر فى بنود هذا العقد فما رأوا فيه بارقة أمل ! وقد احتواهم ما يشبه المرارة والذهول والدهشة .. ، لولا إيمانهم الكبير الذى يحفظ عليهم الثقة فى الله ، وفى رسوله ! !

وقد راحوا يتساءلون : علام نرضى الدنية فى ديننا ؟ !!

● أما المنافقون فقد راحوا يهزأون بكل شىء . . بالرؤيا . . وبالبيعة . . وبعقد الهدنة .. وبحشود المسلمين ، وهم يسيرون فى استسلام إلى نهايتهم المحتمة على أبواب مكة ! !

وما كان يخطر ببال منافق أن المسلمين يسيرون بخطى صادة ثابتة قوية نحو النصر المؤزر ، والفتح المبين !!

وما كان يخطر ببالهم أن الكفر سَتَرْتَعِدُ فرائصه ، وستنهار عزيمته ، وسيرغم على توقيع معاهدة صلح . . وهو الذى دق أبواب المدينة بجحافله مرتين . . مرة يوم أحد ، ومرة يوم الأحزاب ! !

● ما كان المنافقون يحسبون أن المسلمين بعد أقل من شهرين سيغزون « خيبر » .. حيث المغانم الكثيرة ، التى حرم منها المنافقون والمخلفون ، وحظى بها الذين شهدوا الحديبية وحدهم ! !

وما كان المنافقون يحسبون ؛ أنه بعد عام واحد ، من صلح الحديبية سيدخل المسلمون المسجد الحرام ، محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ! !

وما كانوا يحسبون .. أنه بعد عامين اثنين ! ! سيدخلون مكة فاتحين منتصرين ! !

ولكن ماذا يفعل المنافقون ، وهم يحسبون « المعارك » و« الانتصارات» بالحساب البشرى المادى . . فقط ! ! ؟

* * *

لقد عاد الرسول والمسلمون معه سالمين غانمين فاتحين . .

والتقى بهم المنافقون ، وفى رءوسهم مكر الثعالب ، وفى قلوبهم غدر الثعابين ، وفى نظراتهم خبث الشياطين وفى عيونهم دموع التماسيح .

جاءوهم . . ليبدأوا معهم جولة من جولات النفاق ، ولكن « سورة الفتح » كانت قد نزلت ، . وفضحتهم قبل أن ينطقوا بكلمة واحدة ! !

لقد وصفتهم سورة الفتح بأنهم :

• يظنون بالله ظن السوء .

• يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم .

• كانوا قوماً بوراً .

• يريدون أن يبدّلوا كلام الله .

• سيقولون — للمؤمنين — بل تحسدوننا .

وقالت عنهم إنهم سيدافعون عن أنفسهم بقولهم : (شغلتنا أموالنا وأهلونا) وسيطلبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم .

وقد أصدرت السورة حكمها عليهم ، بما يلى :

• عليهم دائرة السوء .

• وغضب الله عليهم .

• ولعنهم

• وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً .

• وأعد لهم سعيراً .

* * *

وهكذا ضاعت تقديرات المنافقين ، وضاعوا !

وبقيت كلمة الله ، وسننه ! !

فى سورة الحشر

مثل الشيطان :

(الآيات ١١ — ١٣ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون).

* * *

• روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بنى النضير ! !

غزوة بنى النضير :

• بنو النضير ؛ إحدى قبائل اليهود الثلاثة بالمدينة — بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة — وقد ظلوا بعد إخلاء يهود بنى قينقاع يعيشون فى ظلال العهد الذى عقدوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم !

• ولكن طبيعتهم الغادرة أبت إلا أن تدفعهم دفعاً إلى محاولة اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم ! !

• فلقد ذهب إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى نفر قليل من الصحابة — دون العشرة — منهم ؛ أبو بكر ، وعمر ، وعلى ليتشاور معهم فى دية رجلين من بنى عامر حلفاء بنى النضير قتلهما أحد الصحابة خطأ ؛ فلما عرض ذلك الأمر

عليهم ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، وقد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا ، آجلس ، ونقوم فنتشاور ، ونصلح أمرنا فيما جئتنا به .

• فلما خلا بعضهم إلى بعض فطنوا لما كانوا فى غفلة عنه ، ورأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً إلى جوار جدار من بيوتهم ، فقال بعضهم لبعض : « إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال منفرداً ، فمن رجل يعلو هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ » فقال أحد ساداتهم : — وهو عمرو بن جحاش — « أنا لذلك » ! !

• فاعترضهم سلام بن مشكم ـ وكان من أحبارهم ـ وقال: «لا تفعلوا !! لئن فعلتم ، فوالله ليخبرنَّ بما هممتم به ، وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه ، ياقوم أطيعونى هذه المرة ، وخالفونى الدهر !! » .

• ولكنهم لم يسمعوا له ، وصعد عمرو بن جحاش ليلقى الصخرة ...

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام ، مظهراً أنه يريد أن يقضى حاجته حتى لا يفطنوا له ، وحتى لا يؤذوا أصحابه ، ورجع مسرعاً إلى المدينة ، ثم عاد إليه أصحابه ؛ فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر !!

• وأرسل إليهم محمد بن مسلمة رضى الله تعالى عنه : « أن اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى فيها ، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر » ! ! ، وأخبرهم بما هموا به ، فسكتوا ، ولم يقولوا شيئاً ، فقال : « ويقول لكم ! قد أجلتكم عشراً فمن رؤى منكم بعد ذلك ضربت عنقه » !

• فرأوا بادىء الأمر أن يخضعوا ، ومكثوا أياماً يتجهزون ، واكتروا من قبيلة بنى أشجع إبلا للرحيل عليها .

• ولكن المنافقين أرسلوا إليهم : « أن اثبتوا وتمنعوا ولا تخرجوا من ديارکم ؛ فإنا لن نسلمكم ؛ إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم »!

• وأرسل إليهم عبد الله بن أبى : « ألا تخرجوا من دياركم ، وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب ؛ يدخلون حصونكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصل إليكم ما تكرهون ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان » .

• وكان على حيى بن أخطب زعيم بنى النضير أن يستوثق من وعود ابن أبى قبل أن يعلن العصيان ؛ ولكنه أعلن قومه بعزمه على العصيان ، فاعترضه سلام بن مشكم ، وقال له : « منَّتك نفسك والله ياحيى الباطل » . ولكن حيياً أجابه : « نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله » فقال له سلام : « فهو والله جلاؤنا من أرضنا ، وذهاب أموالنا وشرفنا ، وسبى ذرارينا ، مع قتل مقاتلينا » .

• ولكن حيياً أبى إلا أن يسير فى طريقه حتى منتهاه !! ، وتابعته على ذلك بنو النضير قائلين له : « أمرنا لأمرك تبع . . لن نخالفك » ! ! . فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنا لن نخرج من ديارنا فافعل مابدا لك » ! !

* * *

• فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « حاربت يهود » ! !

وكبر المسلمون ، وتهيئوا للحرب !

وذهب النبى صلى الله عليه وسلم بجيشه إلى ضاحيتهم ، فحاصرهم ، وتم له النصر !

• وفى خلال الحصار الذى استمر ست ليال[١] ؛ انتظرت بنو النضير طويلا نجدة « ابن أبى » ، ولكن دون جدوى . . ، كل ما كانت تلقاه منه وصايا . . تلو وصايا تقول : « اثبتوا ، وتمنعوا » . .

• ويسأل سلام بن مشكم « حيى بن أخطب » : « أين نصر ابن أبى الذى زعمت ؟ » فلا يزيد على أن يقول : « ما أصنع ، هى ملحمة كتبت علينا . . » .

• وأخيراً . . سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ماحملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة[٢] ، ففعل .

• فحملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف[٣] بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام .

* * *

• يقول ابن هشام[٤] : « ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها ، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسوله صلى الله عليه وسلم ، وماعمل به فيهم » .

• ومما قالته سورة الحشر فيهم :

---

(١) كان ذلك فى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة .
(٢) الحلقة ــ السلاح كله ، أو الدروع خاصة .
(٣) النجاف ــ بوزن : كتاب ــ العتبة التى بأعلى الباب ، والأسكفة : العتبة التى بأسفله .
(٤) القسم الثانى من السيرة النبوية لابن هشام ص ١٩٢ .

(هو الذى أخرج الذين كفروا) أى هو : لا أنتم .. وما كان يخطر ببالكم أن يخرجوا .. وما كان يخطر ببالهم — هم — أن يخرجوا (ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) .

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) من داخل قلوبهم ، لا من داخل حصونهم ، فحيثما تتهاوى القلوب ؛ تتهاوى على إثرها الحصون !! وهل يصمد شىء ، بعد أن يستسلم القلب ..

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب) .

فإذا بهم ينطلقون فى دُوَار مدمر ، يحطمون كل شىء ، ويدمرون أى شىء ، ويخرِّبون مايصادفون ،حتى دورهم التى ألفوها ، وبيوتهم التى سكنوها ..

(يخربون بيوتهم بأيديهم) .

(وأيدى المؤمنين) .

وهنا تكمن العظة البالغة ، والعبرة المؤثرة :

(فاعتبروا يا أولى الأبصار) ! !

* * *

● والمنافقون .. أين المنافقون !! ؟

لقد أسدلوا على مؤامرتهم الدنيئة ستاراً من الصمت .. والجبن .. والخوف ..

لقد كانوا منذ قريب يطلقون الوعود جزافاً — لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب - ويقولون :(لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم) !!

(والله يشهد إنهم لكاذبون) وأشهد الدنيا كلها على كذبهم وصفاقتهم !!

(لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون) !!

لقد اكتفى المنافقون بالتحريض ، وبذل الوعود !!

حتى إذا انزلق اليهود إلى هوة الضياع والخيبة ، وقفوا هم على حافتها يرددون عبارات الرثاء والاستهزاء ..

تماماً :

(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين) .

* * *

فى سورة المنافقون

الخُشُب المسَنَّدة :

(الآيات ١ – ٨ إذا جاءك المنافقون ، قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جُنَّةً فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ؛ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذروهم قاتلهم الله أنَّى يؤفكون ، وإذا قيل لهم تعالوا: يستغفر لكم رسول الله لَوَّوْا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ، هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون) .

* * *

• وقبل أن نلتقى بهذه الآيات ؛ نلتقى بسبب نزولها :

فقد ذكر غير واحد من رواة أسباب النزول أن هذه السورة نزلت فى عبد الله بن أُبى بن سلول .

يقول ابن إسحاق – وهو بصدد حديثه عن غزوة بنى المصطلق – (١)

(١) غزوة بنى المصطلق : كانت سنة ست للهجرة .

« فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ماء يسمى المريسيع - بعد الغزوة - وردت واردة من الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهنى حليف بنى عون بن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهنى : يامعشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين .

● فغضب عبدالله بن أبى بن سلول وعنده رهط من قومه ؛ فيهم زيد بن أرقم - غلام حدث - !! فقال : « أوقد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما أعدُّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سمِّن كلبك يأكلك ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل » . ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : « هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم » .

فسمع ذلك زيد بن أرقم ؛ فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وذلك عند فراغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوه - ؛ فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مُرْ به عباد بن بشر فليقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ ولكن أذِّن بالرحيل » وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها ؛ فارتحل الناس » .

● وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه - فحلف بالله ، ما قلت ما قال ولا تكلمت به - وكان فى قومه شريفاً عظيماً - فقال من حضر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأنصار من أصحابه : يارسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل !! - حدبا على ابن أبى بن سلول ودفعاً عنه - .

• قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار ؛ لقيه أُسَيْد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال يانبى الله ! والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ » قال : وأى صاحب يارسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أُبى » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل ؟ » قال : فأنت يارسول الله ، والله لتخرجنه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يارسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ؛ فإنه يرى أنك قد استلبته ملكا !

مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسوا ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أُبى .

قال ابن إسحاق : ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين ، فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم ثم قال : « هذا الذى أوفى الله بأذنه » .

وبلغ عبد الله بن عبدالله بن أُبى الذى كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله : إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله ابن أُبى فيما بلغك عنه ؛ فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ،

فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى بقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » !!

● وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أُبى على باب المدينة واستلّ سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى ، قال له ابنه : وراءك ! فقال : مالك ؟ ويلك !! فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فإنه العزيز وأنت الذليل !! فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وكان إنما يسير ساقه[1] فشكا إليه عبد الله بن أبى ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يارسول الله لن يدخلها حتى تأذن له ! ! فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال : أما إذ أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجز الآن .

* * *

وإذا رجعنا نتأمل وجه هذا الحدث فإننا نجد ما يلى :

● عبد الله بن أبى بن سلول .. رجل حاقد غاشّ ، يعيش بين المسلمين ، وفى قلبه إحنٌ وفتن ، وشكٌ وشرك ، وتربص وتحفز . ومهما توالت عليه آيات الله مبشرة ومنذرة ، فإنه لا يسمع ولا يفهم ولا يستجيب .. لماذا ؟ لأنه فقد مجده الدنيوى ، وضاع منه « التاج » الذى تمناه وتشهاه ! !

وهكذا .. رفض الآخرة ! ! من أجل الدنيا ! ! فكانت عاقبته كما قال

---

(١) فى مؤخرة الجيش ينظر إلى المتخلف والضال والمحتاج إلى معونة .

الله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) .

• وعبد الله بن عبدالله بن أبى بن سلول . ، نموذج باهر ، للمسلم الحق .. الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم . فهو يضيق بأبيه وبنفاقه .. ويخجله ما يأتيه أبوه من حقد وكيد ونفاق . . . ولكنه أبوه على كل حال ... فحينما يسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يقتل أباه ؛ يأتيه صلى الله عليه وسلم .. ويفضى إليه بذات نفسه ، ويمكنون ضميره ، وبالصراع ؛ الهادر الدائر بين جنبيه .. إنه يخشى أن يقتل أبوه بيد غير يده .. فيتورط فى قتل مسلم بكافر — هكذا قال — وهو لهذا يطالب رسول الله ، أن يكل إليه أشق عمل وأقساه ، وهو أن يقتل أباه ..

• ترى .. بماذا قابله الرسول صلى الله عليه وسلم . . الرءوف الرحيم .. ذو الخلق العظيم . : لقد حيا هذه الفدائية الباسلة الفياضة بأنبل المشاعر ، وأجمل المآثر ، وقال : « بل نترفق به ، ونحسن صحبته ، ما بقى معنا » .

• ويمضى .. بنا الحديث .. ويمضى ...

فإذا بنا أمام موقف بطولى آخر ...

والبطل هو عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول .. مرة أخرى ..

إنه يقف شاهراً سيفه فى وجه أبيه .. الذى يبره .. ويقول عنه : « فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى » . : ثم لا يتركه يدخل المدينة حتى يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

لقد قال أبوه كلمة جاهلية — قال : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) .

ألا يعلم أبوه أن : (لله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ؟

إن لم يكن يعلم .. ولا يفقه .. فليلقنه عملياً .. أنه الذليل .. ورسول الله العزيز !!!

● ومن مواقف هذا الحدث ...

هذا التصرف الحكيم الذى قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليواجه الفتنة اليقظى !!

فلقد أمر جيشه بالسير الحثيث فى غير أوان .. وبغير توان .. حتى يشغله الإعياء عن التفكير فى الفتنة الثائرة .

* * *

● ونعود إلى الآيات .. نتأملها .. فتعطينا الشيات والملامح لوجوه وقلوب المنافقين :

— فهم يتخذون الأيمان جنة ووقاية يخفون وراءها حقيقتهم المزيفة .

(إذا جاءك المنافقون ، قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة) .

— ولهم ظواهر معجبة ، وبواطن خربة : (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا : تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) خشب مسندة لا قيمة لها ، ولا غناء فيها ، فالآية تسمهم بالتفاهة والجبن والخواء ، طيب المظهر مع خبث الجوهر !!

— وبينما هم خشب مسندة لا نفع فيها ولا جدوى ، إذا بهم يعيشون فى توجس دائم ، ورعب مدمر ، وقلق مستمر : (يحسبون كل صيحة عليهم) .

— وهم طابور « خامس » يجيدون الضرب من الخلف ، وتفريق الصف ،

والاصطياد فى الماء العكر ، إنهم أشد فتكاً من العدو الواضح الصريح : (هم العدو فاحذرهم) .

— مستكبرون بالباطل ، يثيرون الشائعات والقلاقل ، ألسنة بذيئة ، وطبائع دنيئة (وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) .

— يعلنون الحصار الاقتصادى ضد أصحاب المبادىء ، ويتواصون فيما بينهم بخطة التجويع ، ظناً منهم أن الحق تهزمه لقمة خبز (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) .

— لغتهم الهمس والنجوى ، وطبيعتهم الهمز واللمز ، ودعاواهم دائماً كاذبة : (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) .

* * *

لقد قالت الأحداث شيئاً .. !!

وقالت الآيات أشياء .. !!

ولا يزال ما قالته الأحداث والآيات يرنُّ فى سمع الزمن !

الخاتمة

● ذلك هو المنافق ....

ذلك هو ....

عقله عقل طائر ، ولُبّه لب حائر ، وحكمه حكم جائر ، ودينه دين فاجر ..!

لا يروم مراماً إلا أبعد عنه ، ولا يستفتح باباً إلا أُغلق دونه ! !

عثرته موصولة بعثرة ، وحسرته مقرونة إلى حسرة ! !

إن سمع زيف ، وإن قال حرّف ، وإن قضى خرّف ، وإن احتج زخرف ، وإن وعد سوّف ، وإن عاهد أخلف ، وإن قيل له : « اتق الله » تأنّف ! !

دينه مكر ، وشرعته غَدْر ، وعقيدته كفر ، وكلامه هُجر ، وأسلوبه « الطعن من الظهر » !!

خلقه فسوق ، وطبعه عقوق ، وعبادته مروق !!

● والمنافق : لا يفكر بصوت مسموع ، ولا يحيا بصدر مفتوح ، ولا يأتى الله بقلب سليم ، ولا يعمل بنية طيبة ، ولا يهدف إلى غاية حميدة ! !

لغته نجوى ، وحياته شكوى ! !

وجُنّتُه يمين فاجرة ، ودنياه بائرة ، وآخرته خاسرة ، ونفسه غادرة كافرة!

● والمنافق يأوى إلى الظلام بعينَىْ « خفاش » ! !

ويهوى الخراب بطبيعة « بُومة » ! !

ويألف الرجس بحاسّه « جرثومة » .

* * *

ذلك هو المنافق .. ذلك هو ..

• فيارب ... أعذنا من ريبة المنافق ، وصلف المعاند ، وطيش العجول ، وغفلة الكسول ، وسكرة المذهول ... !

• ويارب ... هبنا علماً بريئاً من الجهل ، وعملا خالياً من الرياء ، وقولا مؤيَّداً بالصواب ... !!

• ويارب ... أسألك ؛ فطنة عقل ، وسلامة صدر ، وراحة نفس ، واطمئنان بال ، وثبات يقين ، وقوة دين ، وظهور حجة ، ووضوح محجة !!

• ويارب ... ارزقنا لساناً سمحاً بالصدق ، وصدراً مليئاً من الحق ، وأملا منقطعاً عن الخلق ! !

• ويارب ... أسألك القناعة برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليم لما أخفيت ، والإقبال على ما أمرت ، والإدبار عما نهيت ! !

• ويارب .. أشكو إليك قسوة قلبي ، وفتنة نفسي ، وطموح بصري ، وسوء عملي ، وتمزُّق ظاهري ، وتمزق باطني ! !

• ويارب ... إني أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك !!

* * *

وصلى الله وسلم وبارك ؛ على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ؟

دكتور

محمد جميل غازي

الفهرس

ص

من مفردات القرآن (المنافقون) ٣

مقـــدمات ٥--٢٦

- المقدمة الأولى : (تعريف النفاق) ٦
- المقدمة الثانية : (النفاق ومادته فى القرآن الكريم) . . . ٦
- المقدمة الثالثة : (القلوب وأمراضها) ٨
- المقدمة الرابعة : (صفات المنافقين عامة) ١٢
- المقدمة الخامسة : (تحقيق معنى حديث النفاق) ١٠
- المقدمة السادسة : (عقوبة المنافقين) ١٩
- المقدمة السابعة : (الذم فى القرآن الكريم) ٢٢

« صور » المنافقين فى « سور » القرآن الكريم ٢٧

- فى سورة البقرة ٢٨

(ا) فقدوا النور والأمان ٢٨

(ب) أمانة الكلمة ٣٧

- فى سورة آل عمران ٤١

(ا) النفاق اليهودى المتآمر ٤١

(ب) موتوا بغيظكم ٤٣

(ح) غزوة التمحيص ٤٧

- فى سورة النساء ٦٥

(ا) نفاق التشريع ٦٥

(ب) الهاربون من العدالة ٧٢

(ح) الباحثون عن العزة ٨٢

ص

● فى سورة التوبة ٩٠
آخر غزوة وآخر سورة ٩٠
غزوة تبوك ٩٣
المتخلفون من المسلمين ٩٥
المتخلفون من المنافقين ٩٨
ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ٩٨
كنا نخوض ونلعب ٩٩
لا تنفروا فى الحر ١٠١
ومنهم من يلمزك فى الصدقات ١٠٢
ومنهم الذين يؤذون النبى ١٠٣
ومنهم من عاهد الله ١٠٤
مسجد الضرار ١١٠
ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ١١٤
مذكرات كعب بن مالك ١١٨
● فى سورة الحج ١٢٧
نماذج بشرية ١٢٧
● فى سور النور ١٣٥
الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . . . ١٣٥
● فى سورة العنكبوت ١٥٤
فتنة الناس . . وعذاب الله ١٥٤
● فى سورة الأحزاب ١٥٦
حم . . . لا ينصرون ١٥٦
غزوة الأحزاب ١٥٨
غزوة بنى قريظة ١٦٤

ص

- من سورة الفتح ١٦٩
  ميزان القوى ١٦٩
- من سورة الحشر ١٨٣
  مثل الشيطان ١٨٣
- من سورة المنافقون ١٨٩
  الخشب المسندة ١٨٩
- الخاتمة ١٩٦

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠٢٣ سنة ١٩٧٢